

الآن نفتح الصندوق

MOHACT
rewayat2.com

د. أحمد خالد توفيق

قبل أن نفتح الصندوق...

لم تنته الأوراق التي امتلأ بها صندوق الدكتور محفوظ، فالرجل كما هو واضح لم يجمع مالا وإنما جمع ذكريات ، ولو وقع هذا الصندوق في يد واحد لا يعشق الخيال فلسوف يكون مصيره سلة المهملات. لكننا بالطبع نختلف...

الصندوق المغلق له سحر خاص في كل الثقافات، وله كذلك رهبة خاصة.. قد يحوي كل شيء أو لا شيء.. قد نزيد نراه أو قوة أو خبرة.. قد نزيد رعباً أو توجساً.. قد نفهم الحقيقة المريعة التي كنا غافلين عنها، وهي أن الحياة ليست مكاناً آمناً كما كنا نتصور، وأن الغفلة التي ننعم بها نعمة حقيقية.. غفلة الأطفال الذين يلعبون جوار الخرائب غير عالمين بما يتحرك هناك..

ربما نحصل على هذا كله، وربما لا نحصل على شيء سوى لذة الترقب..

كل شيء قد يوجد في الصندوق المغلق أو لا يوجد.. كنز من الياقات والعقيق.. أسرار القنبلة الذرية.. جثة متحللة.. يد مومياء.. قلادة (فلاد).. صور مصفرة حال لونها.. وثائق وعقود لم تعد لها قيمة.. صرصور.. عنكبوت.. لا شيء..

لقد أحب القراء الكتاب الأول، لهذا تقدم لهم الكتاب الثاني وكنا أمل في أن يظفر بذات الإعجاب أو يزيد عليه قليلاً...

من جديد سوف نجد الكثير من الأسئلة ومعظمها بلا إجابة، لكن التساؤل نفسه هو للمتعة التي نجنيها من قصص كهذه.. أو كما يقولون: الرحلة هي الهدف..

تعال نشعل شمعة.. انظر خلفك لتتأكد من أنك وحيد في هذا القبو.. لا أحد يحب أن يقرأ هذه الأمور بينما كيان مجهول متسربل بالظلام يقف خلفه.. لا شك أنك توافقني على ذلك.. ابحث عن صندوق آخر لتجلس إليه.. مد يدك.. تأكد من أن ما تمسك به أنامك ورقة وليست شيئاً آخر.. انترع الورقة الأولى واقرأ ما فيها...

إنها تقول التالي

المقبرة رقم ٣٤

هناك على الضفة الغربية لنهر النيل في الأقصر نحو ستة كيلومترات
للغرب - يمكنك أن ترى وادي الملوك..

صحراء مترامية وشمس حارقة وهضاب على الجانبين تنضج ببطء
في لهب شمس الظهيرة، بينما يتفرق المسياح هنا وهناك يلتقطون الصور
في نهم..

ولد وادي الملوك مع الأسرة الثامنة عشرة، وظل الملوك يدفنون فيه
حتى الأسرة العشرين..

لا تتسائل كثيراً عن الحال منذ أربعة آلاف سنة عندما لم تكن هناك
وسائل مواصلات ولا حافلات مكيفة، وكان العمال يأتون إلى هذا
المكان حفاة عراة على أقدامهم من معسكراتهم في منطقة (دير المدينة)
حاملين مومياء هذا الملك أو ذاك، ثم يغيبون في أعماق الجبل لينجزوا
تلك النقوش الرائعة.. الحر والعرق والافتقار للأكسجين وبرغم ذلك
يصنعون هذا السحر.. هل كان هؤلاء القوم يتحملون أكثر منا بكثير أم
هم كانوا سحرة فعلاً؟

يقال إن هذا الوادي قد اختير بسبب سهولة الوصول من النيل له،
كما تسهل حراسته حيث تحيط به التلال العالية، بالإضافة إلى جودة
الحجر الجيري الذي تتكون منه جباله.. لا تنس أن الفراعنة كانوا ذواقة
صخور حقيقيين، وعلى الأرجح كانوا شعباً من علماء الجيولوجيا..
وكذلك بسبب وجود الجبل الذي يرتفع جهة الجنوب على شكل القرن
والذي يمثل هرمًا طبيعيًا..

وادي الملوك..

يا له من مكان يثير الخيال!.. اللورد البريطاني (كارنافون) بقبعته
العالية وعصاه وتحلقه، والمغامر الأمريكي (كارتير) بقميصه مفتوح
الكمين يبحثان في الصخور ليجدا قبر (توت عنخ آمون). القبر الذي بدأ

كل هذا الكلام عن لعنة الفراعنة التي فشل الجميع في البرهنة عليها، لكن - وهذا رأيي - لم ينجح أحد في نقيها بالكامل.. دعتك من اللغز الغامض المخيف الذي يحيط بالمقبرة رقم 55 والتي سوف نتحدث عنها في قصة أخرى..

أنا قد زرت وادي الملوك مرارًا.. لا أحد يزور الاقصر من دون أن يزور وادي الملوك، ويمكن القول إنني أعرف عم (هردي) جيدًا ومن الغريب أنه يعرفني..

لا يوجد شيء خاص يميزه.. إنه خفير صعيدي أسمر اللون كأنه جاء لتوه من طمي النيل، له سنة ذهبية جميلة، وهو يحمل بندقية حكومية كتب عليها رقمها بالطلاء الأبيض، ويضع تلفيعة سميكة ولا يكف عن التدخين..

شخصية جاءت من أعماق الأدب العالمي، فلو رأها نجيب محفوظ أو ماركيز أو جوركي لما تركوها، ومن المؤسف أنني لا أفهم أكثر كلامه لأنه يتحدث بلهجة صعيدية قحة، أما تلك اللهجة المضحكة التي يستعملونها في المسلسلات التلفزيونية على طريقة (مليح جوي يا بوي) و(ماخابررش) فهي لهجة لا وجود لها اصطفتها المثلون اصطناعًا...

يراني عم (هردي) فيصافحني.. بعد أعوام صارت المصافحة عناقًا.. لا أعرف كيف يتذكرني وسط كل من يراهم يوميًا... (الطفلف) يصل ليفرخ حمولته من كل الجنسيات.. ترى ياياضين سفراً ضيقني الاعين، وأوروبيين لهم لون الكابوريا المسلوقة، وطلبة جامعات مصريين، لكنه يتذكرني أنا بالذات..

.. لك وحشة يا استاذ..

ثم يجلس على تلك الدكة الخشبية بجوار مدخل مقبرة أحد (الرمسيات) الذين يعج بهم وادي الملوك، وينفتح مخان لغافة التبغ حالًا..



هكذا أتركه وأدخل المقبرة الأولى أو الثانية..

كيف لي أن أعرف أن لعم (هريدي) سرًا لا يبوح به؟.. وكيف لي أن أعرف أنه سيصارعني به يومًا ما؟

عندما يقترب اليوم من نهايته يعطون عن قرب غلق وادي الملوك أمام الزيارات. يبدأ السياح يركبون (الطفطف) متجهين إلى الخارج. الشمس الحارقة على الدوام تتناوب وتعلن أنها مرهقة.. تتناوب..

الموجوبات تتلون باللون الأزرق.. كل شيء يبرد..

من بعيد وراء الجبال تتلون السماء بلون أرجواني، ويبدأ البرد.. برودة الصحراء الذي يفترق العظام..

إنه الآن وحيد تمامًا... هناك زملاء له في عدة مواضع لكنهم متفرقون، وعمله هو أن يمضي ليلته هنا.. ليس كل ليلة..

تجربة كهذه تعبت القلب تمامًا، لهذا كف عم (هريدي) عن أن يشعر بالذعر منذ دهور.. لم يعد يقلقه شيء، وعندما يزداد الظلام كثافة ويصير الأزرق أسود، فإنه يشعل النار ويخرج عدة الشاي.. عشرات الأكواب حتى الصباح وهو جالس هنا قرب المقبرة رقم 34..

الآن صار الظلام دامسًا فلا شيء يؤنسه سوى النار المتراقصة وصوت مذياع صغير أعطاه إياه سائح ياباني منذ أعوام. الجبل.. مقابر الفراغة..

من بعيد يسمع صوت ابن آوى يضطك.. يسمع صوت كلب يعوي، ربما هو نثب لأن الصوت موحش عميق، لكن من هو الصعيدي الذي يخاف صوت نثب؟..

يرفع صوت المذياع ويشعل الخاففة تبع أخرى..

ينتظر لساعته.. إنها الحادية عشرة مساء..



ليس اسم المقبرة 34 كذلك بالطبع.. هذا هو رقمها بالنسبة لوزارة الثقافة، فمقبرة توت عنخ آمون مثلاً هي المقبرة رقم 62. لكن المقبرة 34 تخص (تحتس الثالث). ليست سهلة قريبة مثل باقي المقابر لكنها تحتاج إلى مشقة تسلق الجبل وارتقاء درجات ونزول درجات.. مفامرة لم تعد سنه تسمح له بالمرور بها..

هو لا يعرف شيئاً عن (تحتس الثالث).. ما يعرفه من المرشدين الذين يعيشون مع وفود عربية هو أنه كان قائداً كبيراً وكان يعت بصلة قرابة له (حتشبسوت).

الآن منتصف الليل..

يراه من بعيد وسط الظلام يهبط فوق الصخور بتؤدة.. لقد رآه عشرات المرات من قبل..

القائمة الفارعة والصمت.. يقترب في ببطء.. في ببطء.. حتى يصير في ضوء النار، يمكنك أن ترى ملامحه القسيمة السمراء ووجهه الصلب كأنما قد من صخر..

منذ أعوام كان هذا المشهد يجمد الدم في عروقه، وفي المرة الأولى صرخ وراح يستعيز بالله من الشيطان الرجيم. من أنت وكيف دخلت هنا؟.. الجبانة كلها مغلقة.. لا أحد يستطيع الدخول..

لكن الغريب الذي جاء من بين التلال جلس.. قال له بصوت عميق:
"لا تسأل أسئلة كثيرة.."

ثم مد يده يمسك بكوب الشاي الفارغ، فراح الخفير يصب له بيد ترتجف..

يجلس الغريب صامتاً ينظر للجبل المنظم.. يسأل الخفير عن قرينته.. عن ابنائه..

هكذا تمضي الساعات وهما جالسان حول النار.. ثم يقترب الفجر

فبينهض الغريب بلا كلمة ويتجه إلى الجبل، ويرقى الصخور من دون كلمة واحدة... يستعد حتى يختفي..

ويظل الصغير جالساً وحده مطعمًا بالحيرة والأسئلة..

لماذا لم يسأل أكثر؟.. لماذا لم يصبوب بندقيته على رأس هذا الغريب؟.. بكل المقاييس هو متصل إلى الجبابة ويجب أن يقتاده إلى الشرطة أو يطلق عليه الرصاص..

لكنه كان يعرف أكثر.. لماذا لم يصف أي واحد من زملائه الخفراء تجربة مماثلة؟.. من هذا الغريب الذي يظهر في الجبل فجأة؟.. لماذا لا يتكلم؟.. لماذا لا يظهر بانتظام بل ليلة واحدة أو ليلتين في الشهر؟
أترك عم (هريدي) بلا أسئلة أن هذا الغريب ينتمي بشكل ما إلى... إلى... هو لا يجرؤ على أن يقولها..

كل هذا غريبه والأغرب أنه بدأ مع مرور الأعوام يأنس إلى هذا الغريب القادم من المقبرة رقم 34. هو يمضي الليل وحيداً في عزلة صخيفة، لهذا لم ير بأساً في أن يجد بعض الصحبة الأدمية.. من قال إنها أدمية؟

صحبة وخلاص.. المهم أن هؤلاء من يجلس معه جوار النار ويشرب الشاي معه، والأهم أنه يبعد عنه الكلاب المسعورة.. لقد رأى كلباً يدنو من النار ثلاث ليال، وكان يزار بشكل مخيف.. صوب (هريدي) بندقيته نحوه مستعداً لقتله لو تمادى، لكن الكلب تصلب إذ نظر له الغريب.. تراجع وهو يزوم بشكل مثير للشفقة ثم فر مبتعداً..

مع الغريب أنت في مأمن من الكلاب والذئاب والثعابين...

عرفت هذه القصة من عم (هريدي) لما توطدت صداقتنا أكثر، وقد اعتبرتها هلاوس من عجوز قضى حياته كلها ساهراً في جبل مظلم وسط مقابر.. لكن حماسه للقصة جعلني أزداد فضولاً..

إن لي صلات مع أناس مهمين جداً، وقد رتبوا لي أن أقوم بجولة في وادي الملوك ليلاً مع أحدهم.. اسمه (صبري) وهو رجل نحيل عصبي ملول يريد الانتهاء سريعاً من هذا المسحف..

هكذا مشينا في الظلام وسط الجبل متجهين إلى الموضع الذي اعتاد عم (هريدي) أن يسهر فيه، ودعوت الله أن تكون هذه من الليالي التي يرى فيها ذلك الغريب..

عواء ابن آوى يتردد.. الحق أن المكان مخيف فعلاً.. لو إنني قضيت ليلة هنا لرأيت آمون وست وحورس أنفسهم يمشون الليل معي. مشينا في طريق طويل ترابي متهت وكان القمر ساطعاً فلم نحتاج لإضاءة وهذا من حسن حظي، وأخيراً قال لي (صبري):

“لو اقتربنا أكثر لرأنا الخفير.. يجب أن نتواري في مكان قريب..”

كانت هناك مقبرة لها مدخل غائص في الجبل، هكذا تسللنا إلى هناك لنبتعد عن العيون، ومن هذا الموضع استطعنا أن نرى على بعد خمسين متراً (راكية) النار والخفير جالساً أمامها.. هنا تصلبت..

كان يكلم شخصاً غير مرئي أمامه.. يصب الشاي له ثم يناوله الكوب... يتكلم بلا انقطاع..

نظرت لصبري ونظر لي ثم ابتسم وقال:

“كما توقعت أنا بالضبط.. الرجل قد جن واخترع رفاقاً وهمياً يمضي معه الليل..”

هزرت رأسي.. القصة أبسط وأسخف مما توقعت ولم تكن تستحق هذا المشوار الليلي.. تمنيت أن تكون كذلك وقد كان..

قلت لصبري إنني سأدور حول الخفير من الخلف لألقي نظرة أخيرة.. نظرة واحدة بعدها نرحل بالسيارة التي تنتظرنا خارج الجبابة.

هز رأسه في ملل، فانطلقت أركض منخفض الرأس خلف اللافئات
التي تشرح تفطيط كل مقبرة.. تسلقت بعض الصخور لاتمكن من رؤية
المشهد بشكل أفضل.. بالفعل كان الخفير العجوز جالساً يكلم الهواء بلا
انقطاع.. يشرح أشياء.. يشير نحو الجبل.. مشهد مخيف لكنه غير خارق
للطبيعة.. الخوف من الجنون يختلف عن الخوف الذي يسببه شخص
غامض يخرج من مقبرة (تحتمس الثالث) ليلاً..

كان عواء ابن آوى يتريد من بعيد.. طبعاً.. هذه مقابر...

رحفت أكثر.. وهنا شعرت بشعور غريب بأن هناك من يقف قربى..
التفتت في قوتر فرأيت في الظلام الدامس مشهداً غريباً بعض الشيء..
لو أطلقت لخيالي العنان لقلت إنه إنسان عملاق له رأس ابن آوى.. كان
يقف هناك بين الصخور ويظهره لي ناظراً نحو القمر، وكان يصدر
خواراً مكتوماً.. ربما بعد لحظات يطلق عواء عالياً آخر..

(أنوبيس)... سيد المقابر.. المشرف على التحنيط..

لقد رسموه إنساناً له رأس ابن آوى لأنهم رأوا بنات آوى تملأ المقابر..
صوت العواء الذي كان الخفير يسمعه كل ليلة لم يكن من هنجرة ابن آوى
لو أردنا الدقة....

لا أعرف كيف ولا متى انطلقت ساقاي تملقان فوق الرمال والصخور،
ولا أعرف كيف اصطدمت بصهري في الظلام فهتف في حنق:

.. ماذا هناك؟

قلت وأنا أجره من يده:

.. هذه المقابر مسكونة فعلاً.. مسكونة بالخوف.. مسكونة بالرؤى
والظلال.. إما إنني رأيت ما رأيته فعلاً وإما أن هذا الخفير كان على حق
عندما اخترع لنفسه رفيقاً.. من المستحيل أن تمضي هنا بضعة ليال من
دون أن تجن.. فقط علينا أن نرحل.. الآن..

لم يفهم شيئاً وأنا لم أفهم..

فقط اذكر أننا كنا نركض نحو السيارة بينما عواء ابن آوى يتردد من
جديد وسط الجبال..

وكان عم (هريدي) يحكي لضيفه الغريب قصة أخرى على وجه
النيران.



سوء تفاهم

يقع الشاليه المذكور في العجمي.. لا لن أعطي أية تفاصيل أخرى، لكن
يمكنك أن تعرف لماذا هو مهجور، ولماذا لا يتحدث عنه السماسرة، ولماذا لا
يقيم فيه أحد على الإطلاق ويتحاشون المرور جواره ليلاً..

الحق إنني كنت أرى في كلامهم المليء بالهنيان شيئاً من المنطق، عندما
تمر بقربه في الليل وترى الرمال المظلمة بلون الفحم، وترى موج البحر
يرتفع لعنان السماء كجبال سوداء وعالقة غصبي.. تسمع الصوت الرهيب
لغضبة الطبيعة، وتبصر الشاطئ المظلم الخالي.. ثم الشاليه الكثيب يقف
وحده هناك منبوذاً معروفاً.. عندها يمكنك أن تصدق أن هناك شيئاً ما..

كانت الإجازة قد بدأت، وأنا من الناس الذين يفتنون الاصطياف
بشدة.. أظن بأنه عادة بشرية سذيفة يمارسها الناس لأن الناس
يمارسونها.. أنتظر لعيون الناس الواقفين في الشرفات ساعة العصر
خاوية حائرة مليئة بالملل، فأدرك أنهم يتوقون للعودة إلى بيوتهم وأنهم
يشتهون ساعة الخلاص، لكن هذا مستحيل.. هناك قوة عظيمة كاسحة
اسمها الاصطياف.. أقوى منا جميعاً وهي لا ترحم ولا تبالى بما نريد..

هم ينزلون إلى البحر ليسبحوا سباحة الكلاب إياها حيث لا تترك
أقدامهم القاع لحظة.. أجساد متهللة خالية من الجمال والقوة والرشاقة،
ثم يصعدون إلى الشط ليتمرغوا كالحمير الوحشية في الرمال، ثم يجلسون
شاعرين بالملل ويتشاجرون، قبل أن يخرجوا في الليل ليمشوا في أعتى
مناطق الأرض أربحاً وكانهم يشاركون في مظاهرة في الصين لو كانت
هناك مظاهرات في الصين.. كل هذا وهم مقتنعون أنهم يستمتعون، بينما
هم جميعاً جاءوا مثلي مضطرين..

أنا كنت مضطراً وقد جئت إلى العجمي مع زوجتي وأولادي ومجموعة
من أوغاد الأسرة الصغرى، وشرعنا نعارض الطقوس الصيفية المعتادة
الكريهة..

عندما جاء المساء كلمتني (نشوى) المراهقة ابنة أخي عن ذلك الشاليه،
وكيف حكى لها أحد حراس الشاطئ عن العروسين اللذين وجدا مقتولين

في الصباح.. منذ ذلك الحين لم يسكن أحد ذلك الشاليه، ولم يطلب أحد ذلك.. هناك أشياء غريبة تحدث..

الشابان (مراد) و(مصطفى) اللذان يقيعان مع أبويهما في الشاليه المجاور حكيا لي ذات القصة تقريبًا.. إنهما شابان صغيران مهذبان من الطراز الذي يقول (عمو) واعتقد أنني أرتاح لهما...

عندما جاء مساء اليوم التالي أدركت أن الأمور ليست على ما يرام لأن (نشوى) راحت ترتجف كورقة وأصرت ألا ترى ذلك الشاليه المخيف بأي ثمن، وفي الصباح قالت لي زوجتي إنها لم تنم وإنها نقلت العدوى لأطفال الأسرة كلهم لهذا لم ينام أحد..

قلت لهم في غيظ:

.. "الخرافة مهمة في حياتنا وممتعة.. الخرافة تسلينا وتشحذ خيالنا، لكن لا يجب أن نتضخم حتى نحمل حياتنا جميعًا.. انتم تعرفون أن هذا كلام فارغ.. لا يوجد مكان في العالم مات فيه شخص ما إلا وراحت هذه الإشاعات تلاحقه، وأنتم تعرفون أنه - بعد ملايين السنين التي مرت بالكون - لا يوجد مكان في الأرض لم يمت فيه شخص ما.. إذن لابد أن يوجد شبح في كل مكان نمشي فيه "

لكن كلامي لم يصف لهم اطمئنانًا، ولم يبد أن (نشوى) سمعتني أصلاً..

جاء المساء ومن جديد بدأت هستيريا الخوف والتوتر.. هكذا اتخذت قرارًا جريئًا ثوريًا.. لقد بحثت في حقيقتي عن الكشاف وطلبت من (نشوى) أن تلحق بي..

حافية القدمين على الرمال الندية راحت تركض ورائي وهي تسأل في قلق:

.. "ماذا هناك يا عمو (محفوظ)؟"

قلت في حزم:



..أسوأ أنواع الخوف هو الخوف الذي لا تعرف سببه ولا مصدره..
لهذا سادخل الشاليه الذي يفرحك.. لم أقل إنتي سادخل بل سندخل معاً!..
سوف تدركين أنك مخرفة.."

قالت وهي موشكة على الفرار:
..لا بد أنك تمزح.. لن أفعل هذا أبداً!.."

قيضت على مصممها بقوة وقلت:
..بل ندخل الآن... إن إصرارك على عدم مواجهة هذا الرعب سوف
يفسد إجازتك وإجازتنا.. ستجدين أن هذا مجرد شاليه مهجور.. لا أكثر
ولا أقل"

كنا تقريباً نقف على الباب الآن.. رأيت القفل في مكانه كما توقعت،
لكنني لم أنس النافذة.. مصراع النافذة رأيت به يتراقص مع الريح منذ
يومين، وخطر لي أن الحمقى نسوا النافذة مفتوحة.. هذا مدخل لا بأس به
لأن الشاليه من طابق واحد..

قلت لها محذراً:

..هذه النافذة مفتوحة.. هذا يعني أننا يمكن أن نقابل فاراً أو قطعاً أو كلباً
ضالاً أو متسكفاً.. امسكي أعصابك ولا تملئي الدنيا صراخاً، ثم تحكين
في كل مكان عن الشبح الذي وجدناه.."

وبطشيء من الصعوبة تسلقت على قطع القرميد البارزة، وحشرت
جسدي من الفتحة، ثم نظرت لها اطلب منها أن تتسلق ومددت لها يدي..
كانت خفيفة الوزن بلبعاً..

كنا الآن نقف في مكان اعتقد أنه غرفة من غرف الشاليه.. خالية تماماً
قلم يتركوا فيها شيئاً من الأثاث، والرائحة كريهة مما يدل على أن نظرية
الكلب الضال لا بأس بها..

كانت تقف جوارى متلاحقة الانفاس.. ثم هتفت وهي تشهق:
..هناك من يتحرك بالخارج!.. صوت ضحك مكتوم!"



هنا صحيح.. سددت بكفي الكشاف بحيث صار الضوء يتألق بين
أذاملي كجوهرة حمراء، ورحنا نزحف ببطء خارجين من الغرفة..
اصطدمت في الظلام بمنضدة خشبية تحركت فشعرت أن العالم كله قد
انهار...

وهناك وقفنا في الظلام نلهث.. لا صوت.. يبدو أننا كنا واهمين.. ثم
أشرت إلى نافذة أخرى تراقص لتظهر الشاطئ الخالي بالخارج.. هذا هو
مصدر الصوت على الأرجح..

فجأة شعرت بها تعتصر ذراعي من جنيد.. هذه المرة رأيت بوضوح
بقعة نور واهنة شبه فسفورية كأنها عين قط تتحرك في الغرفة المجاورة..
لا شك في هذا..

فجأة دوى صوت ارتطام قوي لا أعرف مصدره وسمعت صوت
خشب يتهشم وصرخة مكتومة..

هذه المرة لم أعد أستطيع مواصلة المنطق البارد.. تعالي نغادر هذا
المكان المخيف....

الأرض مبتلة هنا ولا أعرف السبب.. لهذا انزلت قدمي فاصدرت
صوت أنين، ثم نهضت وهرعت أجنبها من ساعدها نحو النافذة التي
دخلنا منها..

ساعدتها على التسلق للخروج وهي تشفق لكن الذعر أنساها أن تبكي
أو تصرخ وسرعان ما سمعتها تسقط في الخارج على الرمال.. تسلفت
الحافة بدوري ووثبت..

وسرعان ما كنت أجري خلفها نحو الشاليه الأمن المزعج
الخاص بنا..

لقد كانت ليلة الاثنين ليلة سوداء فعلاً، ويبدو أنني سأبحث عن تفسير
لما رأيناه زمنًا طويلاً..

لم ينم أحد.. حتى إن زوجتي بدأت تتكلم عن ضرورة قطع الإجازة

والعودة.. قلت لها إنها جنت كالجميع. يجب أن تنسى الأمر ونعمر حياة طبيعية.. أتوق للعودة فعلاً لكن ليس بسبب أصوات في شاليه مهجور.. مع الصباح اتجهت إلى البحر لابساً المايوه الخاص بي، وهو يذكرني بمايوهات إسماعيل يس في الأفلام القديمة. هناك بدأت أبذل قدمي توطئة للتوغل بضعة أمتار كالعادة، هنا سمعت الشابين (مراد) و(مصطفى) يتناديانني.. كانا قد لبسا المايوه بدورهما وتاهبا لسباحة صباحية قصيرة..

سألني (مراد) وهو يتوغل في الماء أكثر:

.. "تبدو مرفقاً يا عمر..."

.. "لا أحد ينام جيداً في المصيف يا بني لو أردت رأيي"

ووثقت مع موجة عالية أولى توشك على أن تعلو حتى تبلغ صدري.

قال (مراد) في شيء من الفخر والخبث الطفولي:

.. "إن فكرة هذا الشاليه لم تفارقنا، ولقد قمت مع أخي بعلمارة صغيرة

في الظلام... اتجهنا هناك وبعثنا عن مدخل فوجدنا نافذة نسوا أن

يغلقوها.. هكذا تسلقنا إلى الداخل..."

هنا تصلبت.. هذا الكلام مهم جداً.. وماذا حدث؟

أردف الفتى وهو يثب فوق موجة جديدة:

.. "دخلنا في الظلام وكان معي كشاف نسفوري صغير.. كشاف من

الطراز الذي يثبت في القباعات.. الصين تصنع هذه الأشياء كثيراً.. كان

أخي يحمل زجاجة ماء سقطت منه على الأرض وفرغت.. أفرغنا هذا كثيراً

لأن الأصوات تبدو مجسمة في الظلام. لكننا رأينا في هذه اللحظة شيئاً

مرعباً.. رأينا ضوءاً أحمر كجمرة مشتعلة يتحرك في الظلام..."

بدأت ابتسامه تغزو قساعات وجهي، لكنني سألته في اهتمام:

.. "وماذا بعد؟"

.. "كانت هناك منضدة خشبية سمعنا من يرتطم بها.. هنا داس أخي

على لوح سرير خشبي موضوع على الأرض فأن وصرخ لأنه كاد يهشم
ساقه.. بعد قليل سمعنا من يفلدنا - على ما يبدو - ويصرخ المأ.. كان
هناك من انزلق على الأرض..

.. وماذا بعد؟

.. لا شيء.. لم نتحمل أكثر قيادونا بالفرار.. هنا فضائي مسكون ولا
شك في ذلك..

كنت اضحك بلا توقف وهما ينظران لي في دهشة..

لقد لعب كل منا دور الشبح بالنسبة للآخر.. كنت أنا و(نشوى)
شبههما الخفيف، وكانا هما شبهنا المربع.. الماء الذي انسكب على الأرض
هنا صاحبه.. المنضدة التي تحركت كنت أنا محركها..

الحق أن كلاً منا أثار هلع الآخر لأقصى حد، وسوف تضحك نشوى
كثيراً عندما أخبرها بهذه الق... بلوب بلوب بلوب!... لقد نسيت الموج
فجاءت موجة عاتية ألقت بي إلى القاع.. احتججت إلى ربيع حقيقة حتى
أتمكن من الوقوف على قدمي والتنفس ثانية..

رحمت ابصق الماء المالح من فمي وأنفي وقلت لهما:

.. الحقيقة هي أنني دخلت الشاليه في ذات اللحظات.. كنت مع نشوى
ابنة أخي، ولم نعرف أنكما موجودان.. كل فريق كان يسمع الضوضاء
التي يحدثها الفريق الآخر ويرتجف!.. ليلة أمس الاثنين كانت نمرلها
عبقرياً لكوميديا الموقف.. كوميديا سوء التفاهم المولييرية الأصلية!

هنا تبادل الشابان النظرات ثم قال (مصطفى) في تهذيب:

.. عمو.. نحن لم نقل قط إن هذا حدث ليلة أمس الاثنين.. ما نحكي لك
عنه حدث منذ ثلاثة أيام!.. خذ العذر!.. إن الموج يوشك على أن يقذف بك
ثانية!.. ماذا دهالك؟



أعرف جيدًا

أعرف جيداً أنه أشعل لفافة تبغ وراح ينظر لليل الصامت خارج الشرفة..

أعرف أن ملايين الخواطر تزلزعت في ذهنه وهو يتأمل لفافة التبغ.. الطرف الذي يتوهج ثم يخبو.. يتوهج ثم يخبو.. هذا تأثير قريب من التقويم المغناطيسي..

على الأرجح عاد إلى الغرفة هنا.. أعرف أنه جلس إلى مكتبه وفتح للدرج.. بحث في مجموعة الأوراق حتى وجد واحدة لم يخط عليها.. أعرف أنه بحث بين الأقلام عن واحد يصلح.. هذا جف حبره ، هذا تقياً حبره.. هنا مكسور.. أخيراً وجد واحداً وخط على الورقة أول خط..

لا بد أنه توقف هنا.. لا بد أنه نظر للشرفة.. وجد أنه من السخف أن يكتب كل شيء، والرسالة المعتادة بدت له سخيفة مبتذلة..

لهذا كرم الورقة وألقاها على الأرض..

أعرف أنه أخرج اليوم الصور وراح يقلب الصفحات.. صورته وهو طفل سعيد غافل، كل مشكلته في الحياة أن أباه لم يبتع له (الآيس كريم) الذي كان يتوق له.. صورته في سن المراهقة مع أصدقائه جوار سور المدرسة.. صورته وهو شاب في الجامعة.. صورته مع (هالة).. صورته معي وهو يناقش رسالة الماجستير عن إرماهات الواقعية في المدرسة الرومانسية..

أعرف أنه أشعل لفافة تبغ أخرى.. لا يوجد وقت كاف للإصابة بسرطان الرئة.. لا بد أنه راح يتأمل حلقات الدخان المتصاعدة.. لا بد أنه تذكر أنه لم يستطع قط إخراج حلقات دخان من لغمه مهما حاول.. لا بد أنه ابتسم للفكرة..

أعرف أنه انتهى اللفافة فدفنها في قذح القهوة.. ما تبقى منها..

أعرف أنه فتح الدرج من جديد وأخرج المسدس، وتحسس به بأنامله. منظر الرجل الجالس إلى المكتب ومسدس في يده يذكره بصورة مدير المصرف الذي أفلس بسبب الاختلاس أو المقامر الذي خسر كل شيء، كما

نراها في القصص الغربية.. لا بد أنه ابتسم للفكرة مرة أخرى..

أعرف يقيناً أنه الصق الفوهة بصدغه وأنه شعر بالمعدن البارز القاسي هناك يضغط على شريانه.. أعرف أنه تحسس الزناد.. أنه أغمض عينه ... أنه ضلّط الزناد القاسي..

أعرف أنه لا يعرف أي شيء عما حدث بعدها..

أعرف أن الجزء المجهول من رحلته قد بدأ.. هو ليس رحالة من الرواد يبحر إلى بلاد التوايل، بل هو يبصر إلى الأرض التي رحل لها كل بشري من قبل، لكن أحداً لم يعد ليحكي، وفي هذه اللحظة تفوق علينا في أنه عرف.. فقط لم يعد من حقه أن يعود بمعرفته تلك لعالمنا..

أعرف أنهم اتصلوا بزوجته (هالة) التي اتصلت بي.. كانت تولول في الهاتف فانتزعت منها الكلمات بكثير من العسر.. قالت إن (فوزي) مات.. من المهين لكبرياء الزوجة أن ينتهر زوجها.. لا بد من أن يظل حياً إلى أن تقتله هي بالضغط..

كان أول سؤال قلته هو : (لماذا؟)، لكنها كانت قد وضعت السماعة.. هو سؤال سفيف على كل حال..

هكذا وجدت نفسي هناك في مكتبة أنظر إلى الفوضى التي سببها.. أنظر إلى قذح القهوة ولغافة التبغ الأخيرة واليوم الصور.. لا بد أن الكل يتساءل عن السبب.. بالفعل لم يترك أي شيء.. لا خطابات ولا تسجيلات صوتية.. ليست زوجته من الطراز الذي يدفع أزواجه للانتحار..

(فوزي) تلميذي وهو أديب لا بأس به ورجل قوي الشخصية.. وليس من الطراز الذي يفر أو هذا ما كنت أحسبه عنه..

هناك في المشرحة كانت الجثة ممددة على مائدة من رخام. وكان الفم مفتوحاً وفي العين نظرة خاوية.. الصدغ قد نسف بالكامل. أنا رأيت موتى كثيرين لكني لم أعود ألتفت بعد وخاصة لو كنت أعرف القتل جيداً.

أسأل الطبيب الذي وقف هناك ينظر لي:



.. هل مات في الحال؟

.. ماذا تظن؟

.. ولماذا انتحرت؟.. هل يعرف أحد؟

نظر لي في عدم فهم وقال:

.. "تقصد لماذا قتل؟.. هذا ما تريد قوله.. هذه جريمة قتل.. من تحدث

عن انتحار هنا؟"

ثم شرح لي السبب.. لم يكن الرجل قابضاً على مسدس.. لم يكن المسدس موجوداً.. لقد تسلل القاتل إلى مكتبه وأرغمه على أن يفتح له الأدراج بحثاً عن شيء ما ثم ثبت فوهة المسدس إلى صدغه وأطلق الرصاص.. المنتحرون لا يتخلصون من المسدس بعد انتحارهم .

كنت أنا أنظر إلى الجنة في غباء.. تذكرت أن أحداً لم يقل حرفاً عن الانتحار.

لكنني أعرف جيداً ما حدث..

كانني كنت هالداً.. لقد رأيت كل شيء كاملاً وأنا جالس في منزلي.. ولا أملك تفسيراً سوى العلاقة الروحية القوية بيني وبين (فوزي). ربما هو الغموض.. ربما هو نوع من إحساس الروح بروح مماثلة . لا أعرف بالضبط..

أعرف جيداً حالة الاكتئاب التي دهمته مؤخراً.. أعرف خلافه مع زوجته.. أعرف أن شيئاً لم يعد يثير اهتمامه ولو أنه وجد مليون جنيه لما كلف نفسه بأن يأخذها.. أعرف أنه كلف عن القراءة ولم يعد يكتب حرفاً.. لم يعد يمارس عمله وأخذ إجازة لمدة شهرين..

أعرف أنه لم يعد يأكل تقريباً ، وأن شقته خالية من الطعام باستثناء كيس بلاستيكي فيه بقايا فول ونصف رغيف بال على الموقد..

أعرف أنه يتعاطى علاج الاكتئاب سرّاً بلا جدوى تقريباً.. أعرف أن التلفزيون قالف منذ أشهر فلم يكلف خاطره بإصلاحه..



أعرف أن لديه مسدسًا مرخصًا يملكه منذ الفترة التي تلقى فيها تهديدات بالقتل بسبب خلاف عائلي.. أعرف أن فكرة الموت تروق له بشدة..

أعرف أنه أعطاني مفتاح بيته كي أعمل له اللازم لو حدث له شيء.. وأنا سخرت منه وقلت له أن يكف عن هذا السخف..

لكنني كنت جالسًا في داري وسط صقب العيال وأهمهم، عندما شعرت بذلك الخاطر يتردد في ذهني: "تخلص من المسدس.. لا أريد أن تملوث سمعتي".. هكذا يتردد بلا انقطاع.. دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب لكن الصوت ظل يتردد: "تخلص من المسدس.. أرجوك"

ومع الخاطر كانت مشاهد مما يسميه السينمائيون (فوتومونتاج).. أراه يجلس إلى المكتب.. يحاول كتابة شيء.. يشعل لفافة تبغ... هكذا عرفت ما حدث..

كانت الحادية عشرة مساءً لكنني غادرت البيت مسرعًا، وانطلقت بسيارتي إلى بيته.. فتحت الشقة بالمفتاح الذي معي ودخلت متوجسًا.. كان المشهد الذي رأيته فظيعة.. الدم يلوث كل شيء.. من الدهش أن رأيتنا يهوي كل هذا الدم.. فرغت من الرجفة والهستيريا وصار علي أن أكون عمليًا..

"تخلص من المسدس.. لا أريد أن تملوث سمعتي".. هذه هي الرسالة التي تلقيتها.. أنا أعرف أنها منه فلا تقنعني بالعكس من فضلك..

هو لا يريد أن يعرف الناس أنه انتهر.. هناك غيباء في هذا على كل حال، فلو أراد لابتلع بعض أقراص الدواء ناركًا هامشًا من الشك في حدوث خطأ في الجرعة، أو سقط من الشرفة.. كل الساقطين من الشرفات يتركون علامات استفهام تتراوح بين الحادث والانتحار والقتل..

على كل حال انتزعت المسدس من يده وبسسته في جيبي.. قنعت كل الأنراج في مكتبه بعد ما لففت يدي في منديل.. لا أعتقد إنني لمست أشياء كثيرة، لكن من المتوقع أن تكون بصماتي هنا على كل حال.. أنا الوحيد الذي يزوره...

هل يجرون اختبار (الولاج) هنا في مصر؟.. هنا الاختبار يمكنه أن يعرف إن كان هو الذي أطلق الرصاص أم لا، من أثر الذنرات على أصابعه.. لو فعلوا لكان ما أقوم به بلا جدوى، لكن لا يوجد حل آخر..

غادرت الشقة مستريح النفس نوعاً، الانتحار يلقي أسئلة كثيرة ويلوث سمعة الشخص ومن حوله، وهو لم يرد ذلك، بينما القتل يجعلك ضحية يتعاطف معها الجميع.

ما فعلته سوف يهيم الشرطة بعض الوقت، رجالها يبعثون عن القاتل الذي تسلل إلى شقة الأديب الوحيد ليقتله ويفر، لكن هل كان بوسعي أن أرفض آخر طلب من (فوزي)؟

ابتعدت بضعة كيلومترات بسيارتي، ثم غادرتها وتخلصت من المهندس في مقلب قمامة..

هكذا صرت في بلدي عندما جاءت مكالمة (هالة) الباكية.. أعرف جيداً أن (فوزي) راض عني... أنا قمت بتبرئته من جريمة قتل.. قتل النفس.. لا اعتقد أنه من المفيد أن يعرف الناس أنه انتحرو.. "شكراً".. العبارة تتكرر في ذهني طيلة الوقت.. من الذي يشكرني سواء؟

عندما دق جرس الباب بعد يومين فتحتة لأجد النقيب (فلان) والرائد (فلان) يقفان واجهي الوجه.. نريدك بعض الوقت عندنا يا دكتور (محفوظ)..

ماذا هناك؟.. هل من شيء جديد؟
هناك في مديرية الأمن يخرج لي أحد رجال الشرطة مسدساً في كيس بلاستيكي ويقول لي:
"هل تعرف هنا؟"
ويقول آخر:

"أحد جيران (فوزي) رأى تدخل البناية في وقت يتناسب تماماً مع

وقت الجريمة.. كان هو في يثر السلم في الظلام فلم تره.. المدام تقول
إنك خرجت في ذلك الوقت تقريباً ولا تعرف إلى أين.. بعد هذا رأى أحد
المخبرين أثناء عودته لداره سيارة فيأت بيضاء تتوقف قرب مقلب قمامة
وسائقها يتخلص من شيء ما.. الحقيقة أن سيارتك فيأت بيضاء.. لقد
تأكدنا من هذا.. دعك من أن وصفه لراكب السيارة ينطبق عليك بدقة..
الشيء الذي يتخلص منه راكب السيارة هو هذا المسدس.."

ويقول ثالث:

"أنت الوحيد الذي يملك مفتاح شقة (فوزي) وكان بوسعك الدخول
والخروج متى شئت.. سوف نلخص البصمات على هذا المسدس وإن كنت
أعتقد أنها بصماتك.."

ويقول رابع:

"فقط نريد أن نعرف لماذا فعلت ذلك يا دكتور؟.. كلن الفقيد يحبك
ويعتبرك أباه؟"
أعرف جيداً..

أعرف أن الموقف صعب.. سوف أحتاج إلى وقت طويل لأقنع هؤلاء
السادة أنني قمت بتحويل الانتحار إلى جريمة قتل من أجل نكري تلميذي
.. سوف أحتاج إلى وقت طويل حتى أقنعهم بموضوع التخاطر والعبارات
التي تتردد في ذهن.

أعرف جيداً أنني في أمس الحاجة إلى اختبار المولاج الآن.. هو الاختبار
الوحيد الذي يمكنه أن يثبت أن (فوزي) هو الذي أطلق النار لا أنا.. وحياة
والدك.. هل تعرف إن كان هذا الاختبار يجري في مصر أم لا؟



لیست علی‌ها یرام

لا تلوميني من فضلك..

أنا لست ساحرًا ولا عرافًا ولم يتهمني أحد بالعبقريّة من قبل. أنا رجل مسن رأى الكثير من الأمور الغريبة، لكنه لم يتعلم قط كيف يتنبأ بما هو آت..

هل هذه أقراص مهدئة؟.. إنني أعطيني قرصًا.. لا.. فليكن قرصين.. إن يدي ترتجف.. أعرف هذا لكنني لست من الطراز الهستيري الذي تتبدل حياته بالكامل من أجل حادث مروع كهذا.. أنا أعرف نفسي.. سوف أستعيد السيطرة بعد أيام.. لا إن أعاقِر الخمر واتعاطى المخدرات لو كنت تخشع هذا، فأنا لم أجرب هذه الأشياء طيلة حياتي ولن أجربها وأنا أعبت بمفتاح باب مقبرتي..

ربما أنا لست أحق لهذا الحد.. على الأقل أنا اقترحت عليه العكس.. كنت أتكلم بالطبع من الناحية الاجتماعية.. من ناحية العرف.. لكن لا تنكري أنني نصحت..

هل نام الأولاد؟.. جميل.. جميل.. أعرف أنني أضيف لأعبائك شيئًا جديدًا بالعناية برجل مسن يرتجف ذعرًا.. نحن لا نطبق الشيوخ المذعورين، ونفترض أنهم بلغوا من الحكمة مبلغًا يمنعهم من الرعب.. نتوقع أن يعطونا الاطمئنان ولا يأخذوه.. ليكن هذا.. أنا لست مذعورًا.. لننقل إنني منهار عصبيًا لا أكثر..

أنت زوجتي وسري ورفيقة دربي فأقبلني مني هذا الضعف.. القصة كلها بدأت كما تعرفين بـ (مشمّم الديب) صديقي القديم.. هو محام مشغول دومًا ومن الطراز الذي اعتاد على أن العمل يرحمه من مشاكل البيت.. هذا نوع من الهروب معروف.. طيلة اليوم هو في مكتبه بينما الفتاتان تقولن أمرهما زوجته الهازمة النشطة الذكية التي تعرف كل شيء.. لا أعتقد أنه يعرف في أية سنة دراسية هما، ولا يعرف الطقوس الغامضة التي يبتاع بها المرء كيلو من الطماطم..

توفيت الزوجة أخيراً لتضعه أمام مسئولياته .. هذا مازق عسير ..
الفتاتان في سن المراهقة ولا يمكن أن يتركهما للعناية بنفسيهما . البيت
كبير فعلاً عبارة عن فيلا ذات طابقين يحسده عليها كثيرون، لكنه اليوم
لا يشعر بأي فخر بها.. يشعر أنها ورطة ذات طابقين..

هنا جاء أولاد الحلال باقتراح .. (عواطف) سيدة بيت محترمة في
الخامسة والأربعين من عمرها لم تتزوج قط، وسوف يكون دورها
مناسباً.. الفتاتان تحتاجان إلى أم فقط، أما هو فآلة ضخ أموال.. يمكن
الاستغناء عنه بسهولة لو كانت آلات طبع العملة متاحة للبيع..

كان رأيي الخاص أن لا.. زوجة الأب هي زوجة الأب.. يا أخي لماذا لا
تتحمل؟.. يمكن أن تأتي لهما بعربية لو منيرة بيت..

لكن الرجل لم يجد حلاً آخر.. وسرعان ما تزوج..

هل الغرفة مظلمة؟.. إنني لماذا أشعر بتيار هواء؟.. ربما كان السبب
هو توتر أعصابي.. لا عليك..

كانت (عواطف) طيبة فعلاً... ليست جميلة على الإطلاق وليس فيها
أي شيء يحرك مشاعر رجل، لكنها بالفعل من أسرة محترمة، وخطر
لي أنها يمكن بالفعل أن تلعب دور الأم.. لا زوجة الأم..

كانت نشطة.. صحيح أنها تلتزم إلى حزم الأم الأصلية لكن لا
باس.. وقد قدرت أن حياة صديقي (هشام) استقرت نوعاً.. يمكنه
العودة للهرب من مشاكل البيت متظاهراً بأنه منهمك إلى هذا الحد..

نعم.. بالفعل أشعر بتحسّن.. هل القهر من المهدئ بدأ يؤدي عمله؟...
ربما أنا أقرب للتعاس..

ماذا كنت أقول؟..

آه.. بدأت المشكلة مع الزيتو جلوسيا.. نحن نعرف هذه الظاهرة لكننا
لا نعرف أنها زيتو جلوسيا..



في اليده كانت الفتاة الكبرى (مروة) تقف مع زوجة أبيها في المطبخ.. (مروة) في السنة الثالثة الإعدادية وجميلة كالحوريات في الصور. كانت السيدة تعلمها كيف تطهو حساء الخضر.. كانت تشرح لها:

“عندما يتفصل السمن عن الصلصة فهذا معناه (التسبيك).. عندما فقط يمكنك أن تضيفي الخضر.. رادتسك كولين ها.. راسكونا شفا...”

على الأقل هذا ما نقلته (مروة) لأبيها.. تقول إن زوجته ظلت لخمس دقائق تقول كلمات لا معنى لها على الإطلاق... والغريب أنها كانت تومي بيدها وتكلم الفتاة وتشير للطعام كان الفتاة يجب أن تفهم هذا. وعندما انتهت عادت تتكلم بالعربية..

“لم كنت تتكلمين هكذا يا طانط (عواطف)؟”

قالت السيدة:

“أولاً طلبت منك ألا تقاديني إلا بلقب (ماما).. ثانياً من قال إنني قلت أي شيء غريب؟.. كنت أشعر لك أننا سنضيف الخضر الآن..”

مر الحادث بلا تعليق.. لكنه تكرر بعد يومين عندما كانت المرأة جالسة مع زوجها تحكي له عن مشاكل مع خالتها.. هنا بدأت تتكلم لعشر دقائق بتلك اللغة الغريبة. الزوج ظل يرمقها في دهشة ثم راح يهرما كي تتوقف لكنها ظلت تتكلم كأنها تشرح له أشياء..

أنت تعرفين ما حدث بعدها.. الدائرة التقليدية من الأطباء النفسيين والشعوزيين والمعالجين الروحانيين.. لا تفسير لهذا سوى المس الشيطاني.. لا بد أن جذياً أجنبياً مسها وجعلها تتكلم بلغته..

لا بد أن الرجل قضى أسود ساعات حياته وهو يعالجها، ولا بد أنه سأل نفسه مراراً عما جعله يأتي بهذه المصيبة لبيته وهو الذي لم يكن يطبق اصطحاب زوجته الأولى لطبيب الأسنان..



لكن المرأة لم تشف..

ازدادت الحالة تعقيداً، والغريب أن نوبات الكلام بتلك اللغة الغريبة كانت تقترن بشيء من العنف والشراسة بدا واضحاً في أكثر من مرة، حتى أنها لطمت ابنته على خدها مرة.. كانت تنمر وتبدو كأنها ملكة تصدر أوامرها للعبيد..

أنت سمعت هذا وضحكت وقلت لي:

“لا بد أن عفريت كليوباترا قد تقمصها!”

على أن صديقي الطبيب النفسي د. (مصطفى) لم يضحك.. قال إنها حالة هستيريا واضحة وهي ذات الحالات التي يهتمون من الجان بها. على أنه زارها عدة مرات وأصفى الكلامها فكان رايه أنها تتكلم لغة واضحة متعاسكة التركيب والكلمات.. لكن كيف؟؟ المرأة لم تتروك بيت أهلها قط.. لم تسافر ولم تتعلم جيباً، وهي لا تعرف من الإنجليزية سوى عشر كلمات..

قال د. مصطفى:

“الامر غريب.. هناك حالات موثقة في التاريخ وتشبه هذه الحالة.. لم يتم توثيقها علمياً إلا بمعرفة البروفسور (آيان ستيغنسون) العالم النفسي لكن تم هذا بمعرفة مؤرخين.. الحالة اسمها (زينوجلوسيا) وفيها يتكلم الشخص بلغة أجنبية لم يتعلم حرفاً منها من قبل.. فجأة تفاجأ بابتك يتكلم الألمانية أو البرتغالية بطلاقة.. هناك أمثلة دينية لهذا والغربيون يطلقون عليها اسم (الكلام بالالسنه)..”

قلت في ذهنة:

“لكن هذا بالضبط ما يقوله المشعرون عن مس الجان..”

“وما يقوله الهنوس عن التناسخ.. يقولون إن هذا دليل على أنك

كنت برتغالياً مثلاً في حياة أخرى وما زلت تذكر اللغة..”

.. لكن التناسخ كلام فارغ..“

.. طبعًا.. لكن ما أقل ما نعرفه عن العقل البشري.. رأيي أن زوجة صديقك هذه تمر بحالة زينوجلوسيا واضحة.. والمطلوب أن تحضر لي أي شريط يحوي تسجيلًا من كلامها..“

وعده بان أحضر له هذا الشريط، وكان الأمر سهلاً لأن الفتاتين بنتي (هشام) قامتتا بتسجيل إحدى هذه النوبات على شريط فيديو. عدت بهذا الشريط لد. (مصطفى) فقام بتحويل الفيلم إلى صيغة مناسبة للكمبيوتر. لا أفهم هذه الأمور لكنه يتعامل مع الكمبيوتر ببراعة تامة.. لقد وضع هذا الفيلم على شبكة الإنترنت ثم أرسل سيلاً من الخطابات لعشرات الدول يطلب فيها من يعرف هذه اللغة.. في الماضي كنت محتاجين لأن تزوري هيئة الأمم المتحدة أو برج بابل لتعرفني الإجابة.. هل هناك من يتحرك؟.. لا.. إنه الباب يتفلق.. لا مشكلة...

في هذا الوقت قرر (هشام) السفر للإسكندرية وهذه لمدة أسبوع فطلب مني أن أهنئ بالبنوتين.. قال لي بصراحة إنه يفكر في الطلاق جدًّا لأن زوجته تزداد سوءًا.. عصبية.. لا تكف عن وضع المساحيق والكريم على وجهها لأن هاجس التقدم في السن يطاردها.. أحيانًا تضرب البنات.. لقد شاء الحظ أن يختار لبنتي زوجة أب مجنونة وعليه أن يصحح الخطأ..

قال إن علي أن اتصل بالبنتين وأمر علي البيت يوميًا وسوف ينهي كل شيء لدى العودة..

هكذا رحت أتردد على القيلأ غادي الجرم.. تفتح لي الخادمة الشابة وتنادي البنتين لأطمئن عليهما من على الباب ثم أنصرف.. أحيانًا أبتاع لهما بعض الحلوى أو المجلات.. مسكيتان.. ليس أسوأ من زوجة الأب القاسية سوى زوجة الأب المجنونة..

كنت في داري في ذلك الصباح عندما اتصل بي د. مصطفى.. قال إنه يرغب في أن يأتي لي بعض الوقت..

عندما جاء كان يفكر بعمق.. جلس وأخرج مفكرة من جيبه وقال وهو يقلب صفحاتها:

“جاءني الرد من صديق أوروبي.. هذه اللغة رومانية.. لا شك في هذا.. لغة رومانية من وسط البلاد (منطقة الكاربات) لا غبار عليها.. طبعًا هذا يؤكد كلامي عن الزينو جلوسيا..”
“جميل.. وماذا تقول؟”

“تتكم من أنها من أسرة عريقة وأنها ولدت عام 1560.. جدتها كان يحارب الأتراك”

“يبدو إننا دخلنا في خاتمة تقمص الأرواح فعلاً..”

“لا أعرف لماذا تختار الأرواح الرومانية زوجة مصرية هدفًا لكن السؤال كان يتكرر في كل حالة زينو جلوسيا.. تذكر المرأة كذلك اسمي (نادسادي) و(دوركا) بلا سبب..”
“ومعنى هذا؟”

“الروماني الذي رد علي لا يذكر.. أما أنا فأجريت بحثًا مدققًا عبر شبكة الإنترنت عن هذين الأسمين.. وجدتتهما فاضفت للبحث الفاظ (كاربات) و(1560) و(حرب الأتراك).. فوجدت اسم (يانثوري) يتكرر بكثرة..”
“ومن هو؟”

راح يتصفح الأوراق ثم قال:

“هي لا هو.. الكونتيسة الرومانية (اليزابث يانثوري).. فتاة من أسرة عريقة حارب جدتها الأتراك مع (فلاد الوالاشي).. ولدت عام 1560 وتزوجت من الكونت (نادسادي) وأقامت في قلعة بالكاربات. زوجها كان يسافر كثيرًا



جداً لذا قررت هي أن تتسلى بتعلم السحر من خادمة عجوز اسمها (دوركا). كانت سلبية مريضة نفسياً تهوى تعذيب الخادعات وجلدهن، وزادت قسوتها بعد وفاة زوجها.. وكانت فكرة الشيفوخة تؤرقها لأن جمالها كان صارخاً.. ثم وجعت الحل عندما صدفت خادمة شابة لديها فسال الدم ليغرق يدها هي.. بدالها أن بشرتها استعادت شبابها بفعل دم الخادمة، وهكذا قامت مع الخادمة العجوز بتعليق الخادمة الشابة وقطع وريد عنقها، ثم استصفت دمها واستحمت فيه.. منذ ذلك الحين صارت تعلق الخادعات من أقدامهن وتستصفي دمهن لتكرر الشيء ذاته، وكان قمرسانها يخطفون الريفيات من القرى المجاورة، ثم بدأت تفعل الشيء ذاته مع النبيلات.. سرعان ما بلغت سمعتها مسمع ملك رومانيا الذي أرسل جيشاً لاقتحام القلعة وتفتيشها.. حسن.. كان ما راوه هو مشهد من فيلم رعب شنيع.. لقد ثبت أنها قتلت نحو 560 فتاة.. حوكت لكنها لم نعدم لنبل أسرتها وسجنت لعدة أعوام ثم ماتت في الخامسة والأربعين تقريباً ميتة طبيعية.. إنها مصدر معظم قصص مصاصي الدماء التي نعرفها، ربما أكثر من (فلاد الوالاشي) نفسه الذي اشتهر باسم (دراكيولا)..

قلت له مشمئزاً:

.. "قصة فظيعة.. لكن ماذا نحاول قوله؟"

قال وهو ينهض:

.. "لا شيء.. فقط اعرض بعض الحقائق.. زوجة صديقك تجيد

الرومانية فجأة وتتكلم كملكة وتقلق على بشرتها وتردد كلمات غريبة.. فقط كن حذراً.."

بالفعل قررت أن أكون حذراً..

عندما ذهبت إلى فيلا هشام في موعدي اليومي كنت حذراً.. عندما

لم تفتح لي الخادمة الباب كنت حذراً.. عندما اتصلت بالهاتف عدة مرات كنت حذراً..

حتى عندما عدت مع رجال الشرطة كنت حذرًا.. لكننا أدرکنا أن
القبلا خالية.. أخيرًا نزلنا إلى القبو.. (عواطف) كانت جالسة على
الأرض ذاهلة.. لا تعرف كيف حدث هذا ولا من فطه وكانت تتكلم
بالرومانية بلا توقف.. رأينا الخطاطيف المعلقة في السقف.. ورأينا
ذلك البانيو القديم الذي تم وضعه هناك ليتم ملؤه.. وعندما رأينا ما
يتدلى من الخطاطيف عرفت لماذا لم أر الخادمة ولا الفتاتين في ذلك
اليوم، وعرفت أن د. مصطفى عبقرى..

ناوليني قرصًا مهدئًا آخر. أعرف أن ثلاثة أقراص جرعة عالية لن
كان في سفي، لكن من يبالي بجرعات الأدوية اليوم؟!



اسمي ليس (محمود)

هناك ذكريات معينة تعتاز بشيء مهم هو أنك لم تعيشها قط!
من ينكر هذا؟..

لكم من لحن سمعته وشعرت بأنك سمعته من قبل في مكان ما في
زمن ما.. هاتان العميلتان العميقتان اللتان تخترقان أعماقك.. ألم تعيشهما
في زمن ما في مكان ما؟.. ألم تمنحك شيئاً رائعاً أجمل ما فيه أنك لا
تذكر حرفاً عنه؟.. وتلك الراحلة؟.. شعمتها في بستان ما في زمن ما
وأنت تمشي مع شخص ما.. والأجمل هو أنك لا تعرف أي شيء عن هذا
الشخص ولا الزمن..

ثمة كيمياء غامضة تلهو بنا طيلة الوقت..

البعض قال إن هذا دليل على أننا وجدنا في شخصيات أخرى في
زمن آخر.. ربما كنت أنت بالأمس راهباً يحرق البخور في معبد من معابد
(الماهايانا) على قمم القبت، أو كنت هندياً أحمر يرقص حول النار في
صحراء كولورادو.. هذا هو صلب عقيدة تناسخ الأرواح التي تصطدم
مع الدين في أكثر من نقطة..

علماء النفس يعطون تفسيراً أكثر تعقيداً.. إنه الوجدان الجمعي.. إنها
خبرات تراكمت عبر الأجيال وتنتقل من السلف إلى الخلف.. لكن هل
تتضمن هذه الذكريات الروائح؟

علماء النفسولوجيا يتحدثون عن ظاهرة Déjà vu التي تقنع نصف
عقلك بأن ما يراه النصف الآخر هو ذكريات عشتها في زمن ما.. فكنا هم
يدقنون الخيال في بئر عميقة، ويرجعون هذه الحيرة الكونية المحببة إلى
خلل في تدفق الدم..

ترى أية إجابة هي الصحيحة؟.. ترى من يعلم؟.. ويوم تعلم هل سنعلم
أننا علمنا؟..



في العاشرة من مساء الجمعة تشاجرت مع أم العيال..

أنت تعرفني جيداً فلا يجب أن تشير هذه الأمور قلبك.. قللوا إن هذه الأمور هي الملع الذي يعطي للزواج نكهة وأنا أؤمن بهذا.. فقط لا أعرف سبب كون زواجي مالحاً لهذه الدرجة التي تجعل رأسي على وشك الانفجار من فرط ارتفاع ضغط الدم..

دخلت غرفة مكتبي وأغلقتها على نفسي.. أشعلت لقافة تبغ وبدأت أضغ المشاريع المتحمسة التي أعرف - قبل أي واحد آخر - أنها خيالية طفولية.. في العاشرة والربع قررت أن أقتل زوجتي.. سأحضر السكين من المطبخ وأطعنها عدة طعنات، وككل للقتلة أضعها في طشت تحت الفراش - لا أعرف لماذا يفعلون ذلك لكنه طيء إجباري - وأجلس على المقهى بانتظار قدوم الرائد (فلان) والعقيد (علان)... وسوف أظهر على صفحة الحوادث في الأهرام زائغ العيقين أقول للمسطحي: أصل الشيطان ورنني يابيه..

في العاشرة والنصف فكرت في الملاق وبدأت أحسب النفقة ومؤخر الصداق، والعقد النفسية التي ستصيب العيال.. فتحت المفكرة لأحسب فوجدتها مليئة بالحسابات السابقة من ألف مشاجرة..

في الحادية عشرة إلا التث استقر رأسي على أن أغادر البيت على سبيل الاحتجاج.. بضع ساعات ثم أعوس.. هذا هو القرار الأصوب...

هكذا غادرت البيت من دون سلام ولا كلام.. وتعمدت أن أغلق الباب بعنف، لكنني سمعت صوت (سعاد حسني) الرخيم قادماً من التلفزيون يغني كلمات (صلاح جاهين) اللاذعة: بابا زمانه راجع.. يعني حيرج لين؟ مصادفة غريبة فعلاً!

الليلة سوف أثور.. سوف ارتاد المواخير وأرافق أبناء الليل وأعقر الضمور.. سوف تعرفني شوارع المدينة المذهكة.. وسوف يحفر اسمي في ذاكرة كل امرأة قابلتها في تلك الليلة.. سوف يتصع الأباء أطفالهم إلا يكبروا ليصيروا مثلي.. الكلاب المسعورة التي تنبح في الأزقة سوف تتوارى رعباً عندما ترى ظلي.. سوف..



وبالطبع لم أفعل شيئاً من هذا، لأنني لا أعرف مكان ماخوذ واحد، ولم
أثق قطرة خمر في حياتي..

هكذا حملتني قدمي إلى المكان الوحيد الذي يصلح كمغامرة لي: محطة
السكة الحديد.. سوف أقضي الليل على مقعد هنا وألعب نفسي على أنني
لم أذهب القط لزوجتي ليلة الزفاف..

جلست على المحطة وسط أشباح القطارات التي نامت أخيراً بعد عناء
يوم طويل من الركض بين القاهرة والإسكندرية والمنصورة و... و... كان
الطقس بارداً بحق وبدأت لي فكرة قضاء الليل هنا عسيرة فعلاً.. لكنني
كنت أواجه آخر تحد مع نفسي الفاعسة الخاملة.. أليس انتقام استطعت
تقليده هو أن أجلس على محطة القطار بضع ساعات، فإن لم أفعل هذا
فأي نفع لي؟

في الواحدة صباحاً رايتها..

كانت تمشي في تودة على رصيف القطار.. ترتدي معطفاً جلدياً طويلاً
سابقاً وتضع يديها في جيبيها، كأنها تقلد مصاصي الدماء (البانك) في
أفلام الرعب الحديثة.. تمشي مطرقة.. لا صوت سوى صوت كعبي
حذاءيها.. الحق إن شيئاً في مظهرها ومشيتها كان غريباً بشكل لا يصدق،
لكنه في الآن ذاته رهيب يبعث نوعاً من التوجس.. فتاة وحيدة على محطة
القطار بعد منتصف الليل لا تبحث الراحة في النفس.. لو لم تخرج لفافة
تبغ وتعرض علي ليلة مقابل مائتي جنيه (يا اللعدي)، لمانها ستكشر عن
أنيابها ويبرز لها جناحا وطواط، واكتشف أن عينيها مشقوقتان بالطول
أو أن لها حافر ماعز..

فجأة دنت مني لتوترت.. كنت على وشك الصراخ..

رايتها تحملق في وجهي بعض الوقت.. توترت كثيراً. لكنها قالت في
حماس:

"(محمود)!!..!!"

نظرت لها في عدم فهم، فقالت:



.. "الا تذكرني؟.. مستحيل أن يكون الزمن قد غيّرك إلى هذا الحد..
أنا (داليا)"

هزّزت رأسي في غياء، فقالت:

.. "تذكر.. الخيل.. منذ عشر سنوات.. (وليد الخضري).. إنه أخي.."
ثم جلست في بساطة جواربي.. أنيقة جداً فاخرة جداً.. لا يمكن أن
تكون لصاً أو ما هو أسوأ.. لكن يجب ألا ننسى الحقيقة: أنا لم أرها من
قبل قط..

.. "معذرة.. أنا لا أذكر فعلاً.. ثم إن اسمي ليس..."

.. "فكر.. فكر قليلاً.."

ثم تذكرت السؤال المهم الذي يفسر كل شيء:

.. "ماذا تفعلين هنا؟.. لا توجد قطارات.. أنا موجود هنا لأنني مجنون
لماذا عنك؟"

قالت باسمه:

.. "الامر شبيه بهذا.. لا توجد قطارات، لكني كذلك لا أثوي أن أجازف
بركوب (ميكروباص) أو سيارة (بيجو) في هذه الساعة.. اعتقد أنني
سأبقى هنا في المحطة حتى موعد لول قطار"
لم تطلب نقوداً للعودة لبلدتها على الأقل.. هذه نقطة مهمة.. ثم أردفت
وهي ترى غبائي:

.. "قلت لي يوماً إنك تجرب للمرة الأولى أن تتجراً.. قلت إنه لا
وقت للألعاب السخيفة والتظاهر بعدم الاهتمام لأن هذه آخر فرصة لك
للسعادة.. عرضت علي أن أخرج معك في نزهة نيلية.. هل نسيت
هذا كله؟"

هزّزت رأسي.. مستحيل أن تخرج هذه الكلمات من شخص متحفظ
مثلي.. الامر مؤكد.. إما إنها مخبولة أو هي قاعدة (يخلق من الشبه
أربعين).. ثم إن اسمي ليس (محمود)..

قالت كالحالة:

"هناك والتيل يهز القارب لمست يدي وبحت لي بسرك.. سرك الذي
ساظل اذكرك للأبد.. هل ما زلت لا تذكر؟.. الهرم ونزلة السمان.. حديقة
الأورمان عندما كانت آدمية.. ثم الإسكندرية و...."
كنت أشعر بحيرة لا مثيل لها، وهرزت رأسي من جديد وهمسست في
ضعف:

"إن اسمي ليس (معد)..."

قالت وعيناها تلتمعان في حماس:

"مه.. لا تقصد اللحظة.. هل تفهم معنى هذا؟.. مكان ناء كهذا وفي
ساعات الفجر الأولى يلتقي حبيبان بعد كل هذه الأهوام.. هل يمكنك
تفسير هذا بقولتين الصيغة؟.. لقد أراد الله أن تعود قصتنا.. أراد الله أن
يجمعنا بعد كل هذه اللسن.. وقد يجمع الله الشقيتين بعينا، يظنان كل
الظن إلا تلاقيا..."

ثم صمتت وراح صدرها يعلو ويهبط..

كنت أنقب في سجلات ذكرياتي ومخازنها...

بالفعل أذكر أنه في زمن ما في مكان ما كانت لي قصة مع فتاة كهذه..
بل هي نفسها.. هاتان العينان الثاقبتان الصريحتان الداهقتان.. تلك
الأنامل الطويلة التي تشي بحسامة غير مسبقة..
لم يكن اسمها (داليا) بل (ليلي).. أعتقد هذا.. لعل الذاكرة خانتني
فعلاً...

فقط لو يذوب كل هذا الثلج من على تضاريس ذاكرتي.. لو يسقط هذا
الصدا..

يا لها من ليلة تلك التي تبدأ بالشجار مع زوجتي، وتنتهي في محطة
القطار مع فتاة تذكرك بشخص ما.. !!

(ليلي).. هناك ذكرى عن محطة مترو الأنفاق.. يبدو أن المترو تعطل

بين محطتين.. كانت هناك وسط الزحام تنظر لي بلا انقطاع.. لماذا أنا بالذات؟.. منذ عشر سنوات لم أكن شاباً أو جميلاً.. بعد سن الثلاثين لا يعود هناك فارق واضح بين الأربعين والخمسين والستين.. رجل في منتصف العمر أو آخره.. لا يهم...

تنظر لي بلا انقطاع.. ترفع رأسها كأنها تختنق.. بجعة تخرج رأسها من بركة العرق التي تسبح فيها.. لا أعرف كيف دنوت منها.. كيف ظلت أنظر لعينيها عشر دقائق كاملة، ثم ممست لها إني أشعر بأنني أعرفها منذ زمن.. فقط لو تمنحتني لحظات أتكلم فيها بلا مقاطعة.. كيف وانتني هذه المرأة؟.. لا أعرف..

نعم.. أنا أتذكر (ليلي).. جولتنا في شوارع العاصمة الخالية... شوارع حلوان قبل الغروب.. لماذا حلوان؟.. لأنه لا يوجد بعدها شيء لراكب القارو.. إنها ما بعد البعد.. لو ابتعدنا قليلاً لسقطنا من على حافة العالم كما خشي بحارة كولومبوس يوماً ما..

نعم.. ليلي.. اسمها (ليلي) وليس (داليا).. اعتقد هذا.. لا بأس بالخطأ الذي تحدثه الأيام.. هي كذلك دعني بـ (محمود)... لنا (محفوظ) ولست (محمود)..

هكذا رفعت رأسي للفتاة الهالسة جوارى..

كانت شاردة الذهن تضع يدها على جبهتها كأنما هي مصابة بالصداخ..

قلت لها:

“الآن أتذكر كل شيء.. أتذكر مترو الأنفاق عندما تعطل.. أتذكر ضواحي حلوان وجولتنا هناك لجرد أنها مكان ناء بعيد عن عالمنا.. أتذكر السينما وحفلات الثالثة مساءً لأنك يجب أن تكوني في بيتك في السابعة.. أتذكر.. وإني لأعتذر بشدة..”

كانت صامئة تتحسس جبهتها بلا انقطاع فهتقت في قلق:

.. (ليلي) .. هل هناك شيء؟

قالت وهي تنظر لي نظرة غريبة جداً:

.. اسمي (داليا) ... وأنت .. قلت إن اسمك ..

.. (محفوظ) .. أنت تصرين على أنه (محمود) ... لا مشكلة .. مهما تغير

الاسم فأنا الشخص ذاته ..

فجأة نهضت وجذبت حقيبتها وقالت:

.. ثمة خطأ .. خطأ مريع ..

.. ما هو؟

قالت وهي تتراجع بظهرها:

.. الآن أنتظر بوضوح .. لا .. لست أنت .. أنا أسفة .. أنا أتحدث عن

(محمود) فعلاً .. اسمه كذلك .. من المستحيل أن أنساه .. يبدو مثلك لكنه

مختلف .. أنت تفهم ..

وتراجعت أكثر ثم هتكت:

.. أرجو أن تسامحني .. أنا حمقاء ..

وسرعان ما كانت تركض على رصيف المحطة لتغيب عن بقعة النور

الواهنة التي يبعثها عمود نور ..

وجلست أنا أنظر على اللقطارات الغافية في حيرة ..

لم أكن أنا لكنني متأكد من أنها هي ..

كيف يكون ذلك؟

وشعرت برجفة .. إذن نحن لم نلتق قط .. من يدري؟ .. لربما التقى

اثنان آخران هما (محمود) و(ليلي) .. لو كنت أنا قد قابلت (ليلي) وهي

قابلت (محمود) فكيف عرفتني وكيف عرفتني؟

في زمن ما التقى اثنان يشبهاننا .. وافترقا .. فلماذا عرفت أنا و(داليا)

بعضنا؟

أسئلة لا تنتهي.. وأنا أرمق مملكة الظل الأبيض كوحش خارج دائرة
الأضواء الخافتة..

ونظرت في ساعتني..

وتنهدت.. لم أعد قادرًا على أن أظل غاضبًا على زوجتي أكثر من هذا..

لقد حان وقت العودة إلى البيت والنوم.. ربما أرى (باليا) في

الحلم.. ربما....

أنا والكلب

أعرف أنني لم أكتب لك منذ فترة طويلة، لكن الأفكار تصبّح في ذهني إلى درجة أنه لا بد من أن أجلس وأكتب. هناك لحظة ما في حياة المرء يراجع فيها كل مسلماته ويعرف أنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق. أنت تعرفين أن بيتي قريب من الكلية، وأنا في هذا من المحفوظات القليلات في العالم اللاني لا يضطرون إلى البحث عن وسيلة مواصلات. لا أعرف معنى كلمة (زحام) ولم أجربها. ويقال على سبيل السخرية إنني سأبقى في الكلية للأبد، لأن التخرج معناه فقدان هذا العنصر الحسن.

كانت معاصراتي متصلة في ذلك اليوم واضطرت إلى البقاء حتى بدأت الشمس تتحدر نحو الغرب. لا أخفي عليك أنني منذ الطفولة أشعر بتقلص في معدتي عندما تغيب الشمس وأنا ما زلت في الدراسة. خاصة عندما يفلقون النوافذ ويضيئون النور الكهربائي في قاعات الدرس، فهذا يشعرني بأنني موشكة على الإنهاء... كأنني تأخرت جداً ولن أعود إلى داري أبداً.

طبعاً تخلصت على هذه المشاعر الطفولية وبدأت المشي في الشارع عائداً إلى داري. لا بد لي من عبور تلك الساحة الخالية التي تبث فيها سيارات المنطقة. وهي ساحة مأمونة باستثناء تلك الكلاب الشرسة التي يأتي بها خفير الجراج من وقت لآخر. لكنهم علموني أن أنظر للأرض وأمشي في هدوء حتى لو شعرت بأنفاس الكلب الحارقة على ساقي.

في هذه المرة كان ذلك الكلب يقف أمامي وينظر لي في ثبات. لم أر من قبل هذا الكلب فهو وجه جديد فعلاً. كلب رمادي يبدو أنه متقدم في السن، في عينيه نظرة حكيمة غريبة عارفة بكل شيء... يقف هناك في وضع مألوف لدى الكلاب ويتابعني بعينه... ثم بدأ يمشي خلفي... يمشي في تودة وبلا عصبية أو حماس.

لا أعرف السبب لكن ملاحظته لي جعلتني عصبية. وقد وجدت نفسي أجد السير حتى أوشك على أن أقع في المحطور وأجري. وبلغت بيتي أخيراً فقط لأجد أن الكلب يقف أمام باب البناية وهو ينظر لي تلك النظرة الغامضة!

لم أستطع فهم الطريقة التي سبقني بها.. لكنني على كل حال مررت
جواره في حذر، وسرعان ما رحت أركض على الدرج خائفة من أن يلحق
بي قبل أن يفتحوا الباب.. لا لم يحدث شيء كهذا..

في الأيام التالية كتبت أراه باستمرار.. تقريباً لم يمر يوم دون أن أراه
وتصدمني عيناه الغريبتان.. أغرب عيني كلب رأيتهما في حياتي.. فيهما
شيء بشري لا شك فيه.

اليوم فقط أفكر في موضوع تناسخ الأرواح الذي قرأت عنه كثيراً.
أعرف أنه مرفوض وغير وارد لكنه يلاحقني فعلاً.. حسب مفهوم تناسخ
الأرواح فإن أرواحنا تخرج من أجسادنا لتولد في جسد آخر قد يكون
بشرياً وقد لا يكون.. دورات حياة لا تنتهي..

للمرة الأولى أفكر في أن هذه القصة قد لا تكون خيالية تماماً. هذا
الكلب يحمل شيئاً بشرياً فلماذا لا يكون كذلك؟

لماذا لا يكون هذا الكلب ذو العينين الناطقتين تناسخ روح إنسان مشى
على هذه الأرض يوماً؟.. هذا هو التفسير الوحيد بالنسبة لي لنظراته
المعبرة الغريبة.

نعم يا صديقتي الحبيبة.. الأمر بهذا السوء والعن.. صديقتك تمضي
الوقت في بيتها تفكر في كلب! إن غرائب الحياة لا تنتهي عند حد.

عادة

عزيزتي هالة:

تتذكرين الكلب الذي حكيت لك عنه في خطابي السابق.. نعم.. لا
تدهشي فالأرضوع يهمني فعلاً.. كنت أعبر تلك الساحة ووجدته كما
يحدث في كل يوم، لكنه كان يعرج قليلاً.. دقت النظر فاكتشفت أنه ينزف
من قدمه.. المسكين قد داس شيء على قدمه الخلفية، ولعلها سيارة يركبها
غبي ما حاول أن يركنها في الجراج.. غير مبال بوجود كلب نائم خلف
الإطار.. انظر قلبي للمنظر ومشيت لبيتي فوجدته يتبعني كالعادة وهو



يعرج.. هذه المرة سعدت معي إلى الشقة، ولما لم يكن هناك أحد في البيت فقد لدخلته.. كانت هناك دجاجة في الثلاجة فاقتطعت ربعها ووضعت على جريئة أمامه. رحت أراقبه للمرة الأولى في حياتي عن كثب وهو يأكل في نهم. من الواضح أن حياة كلاب الجراج ليست سعيدة جداً.. ما أغرب منظره، وما أعجب تعبيرات وجهه ونظراته لي!.. على كل حال أحضرت بعض المطهرات والبلاستر والشاش وقمت بتضميد قدمه كما اتفق، ثم أخرجته على باب الشقة وطلبت منه أن ينصرف لكنه ظل واقفاً.. هكذا عدت إلى الجراج معه وهو يركض خلفي.. هناك لوحته له مودعة وطلبت منه أن يعنى بنفسه ولا يجلس في الشمس كثيراً.. هذه المرة يبدو أنه فهم لأنه أقام على الأرض وراح ينظر لي في ثبات..

هذه النظرة تثير جنوني!... أحياناً أعتقد أنني في قصة حب.. مع.. مع كلب!؟

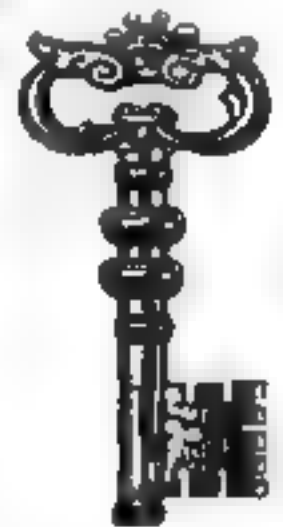
لو كانت نظريات التماسخ هذه صحيحة فعلي أن أقبل أنه كان رجلاً في السابق. هذا خير من أن أقبل أنني كنت كلبه!

سامعيني على هذا الهذيان. لا بد من شخص يمكن للمرء أن يهذي معه وهو آمن. بينما يهذي المرء مع خطيبه فيفسخ الخطبة. يهذي مع أبويه فيأخذانه للطبيب النفسي - يهذي مع أستاذه فيفصله من المدرسة.. لهذا تحمليني قليلاً!

عادة

عزيزي فوزي:

سامعني على ما سأقوله في هذا الخطاب.. لا بد للمرء من أن يجد حرية الهذيان من وقت لآخر وإلا انهيار. عندما كنت في لندن عرفت حديقة هايد بارك التي يقف فيها الخطباء. هناك من يرى أنه أجدر بعرش بريطانيا ومن يرى ضرورة خلق الأطفال الرضع.. كل هؤلاء يهذون في حراسة رجال الشرطة، وهو تصرف حكيم من حكومة تعرف أنه ما لم يسمح للمرء بالهذيان العفوي فإنه ينفجر.



اكتب لك لأشكو تلك الكوابيس الغريبة التي تجتاح عالمي من وقت
آخر في الآونة الأخيرة . أولاً أنا أحب.. لا تخف.. هذا الحب لن يتبعه أي
شيء من طلاق وزواج وكل هذا السخف، لأن الفتاة التي أحبها في عمر
بذاتي. لكنني متعلق بها بشدة فعلاً.. ثمة شيء في عينيها يذكرني بشيء
آخر حميم عزيز. هذه الفتاة طالبة في كلية ما وهي تمر امامي كثيراً جداً
وتنظر لي نظرة تقول بوضوح: أنا أعرفك كما تعرفني.. لكن متى؟

كل هذا جميل ومفهوم، لكن تلك الأحلام لا تفارقني.. في كل مرة أتخيل
أنني كلب تعس الحال.. كلب ضال يمشي بلا صاحب في ساحة خالية ثم
تمر هي امامي فأتبعها..

أتبعها في شارعها..

أتبعها على درجات سلم دارها..

هذا الكابوس يتكرر مراراً..

أحياناً أراه ليلاً وأحياناً في نوم القيلولة . مؤخراً حلمت بأن سيارة
شاب عابث دأست على قدمي فرحت أنزف، وأنبح ذلك النباح الممزق
للأفئدة المميز للكلاب الجريحة. ثم جاءت هي كأنها للملاك ونظرت لي في
شفقة ثم اصطهبتني إلى دارها حيث قدمت لي دجاجاً على جريدة وربتت
على رأسي، بعدما ضمدت قدمي بيدها الرقيقة وأنا أنظر لوجهها خير قادر
على إبعاد عيني. كانت تقول لي كلاماً رقيقاً مثل (يا لك من بائس!.. لماذا
لا تهتم بنفسك أكثر؟.. اصمد يا صغيري) ... ثم إنها اصطهبتني إلى تلك
الساحة وهي تطلب مني أن أعنى بنفسي وألا أجلس طويلاً في الشمس..
الخ.. ثم صحت من نومي.

إن أحكي لك عن الباقي ولا عن الجرح الذي وجده في ساقي عندما
كنت أتوضأ للصلاة.. من أين جاء؟.. من ضمده لي؟.. رأيت هذا الجرح
من قبل في الساق الخلفية لكلب.. وقد ضممت يد رقيقة طويلة الأنامل.

أنا موشك على الجنون. أين عرفت هذه الفتاة ومتى؟.. لماذا أرى هذه
الكوابيس الغريبة؟.. لو كانت نظريات التناسخ حقيقية فأنا قد عرفتها

في مكان ما في موضع ما من قبل.. لكن أين؟.. هل على ضفاف النيل
بينما جند تحتمس الثالث ينقلون أسراهم؟.. أم في قرية صينية ما في
عهد المنج؟.. أم كانت من قبيلة الشيين وعرفتها عندما ذهبت لأبتاع بعض
الفراء منهم؟.. أم كانت ترقص البولكا في زفاف صديقي في تلك القرية
الأوكرانية ودعوتها إلى شرب الفودكا معي؟

لا أعرف.. لكن الإجابة عن تلك الأسئلة موجودة في ذات الكهف الذي
تجد فيه سر الحياة وسر الخلود وسر هجرة أسماك التونة وانتشار
الحياتان في الغسطن..

محفوظ

عزيزي فوزي:

حدث شيء غريب اليوم. كنت عائدًا إلى داري عندما خطر لي أن أجتاز
تلك الساحة الخالية التي يوجد فيها ذلك الجراج. كثيرًا ما أرى تلك الفتاة التي
أجهل اسمها هناك. كنت أمر تحت شرفة بيت. عندما رفعت رأسي فجأة لأجد
ربة بيت فظة بديئة تجعل دلوًا من الماء وتسكبه فوق رأسي. لم يكن الوقت
كافيًا إلا لأرفع يدي في شبه استهانة ثم هوى الماء البارد القذر فوقي.

هل تعرف ما حدث؟

وجدت نفسي من جديد في كابوس الكلب.. كلب مبتل يركض مدهورًا
مبهتمًا.. يركض في الساحة وسط السيارات الواقفة. رأيت الفتاة الرقيقة
تنظر لي في اهتمام. على قدر علمي هذه أول مرة أدخل فيها ذلك الكابوس
من دون نوم.

وفي هذه المرة طال الحلم كثيرًا جدًا.. طال.. قضيت يومًا كاملاً ككلب
وصارعت الكلاب الغريبة، وحككت الكثير من البراغيث عن جلدي، وعرفت
عظامًا ملقاة أمام متجر قماماب..

فقط عندما جاء الليل نمت.. هكذا انقثت من ذلك الكابوس لأجد نفسي
في فراشي، من ثم قمت لأكتب لك هذا الخطاب.

هل تعرف الفكرة المربعة التي تلج علي؟.. أعتقد أنني لم أحلم بنفسي وأنا كلب.. الكلب هو الذي يحلم بنفسه ككائن بشري!.. د. محفوظ وحياته وأسرته وتجاريه ليسوا سوى أحلام كلب نائم في الظل!.. لقد كنت أحلم عندما مشيت في تلك الساحة وجاء دلو الماء البارد ليوقظني من الحلم، فرحت أركض مذعورًا كأني كلب سكبوا عليه دلو ماء بارد وهو نائم.

هي فكرة مخيفة: كل مقامراتي وحتى هذا الخطاب الذي أكتبه.. كل هذا وهم.. الكلب جرح في ساقه ولعننت به فتاة رقيقة. هكذا حلم بنفسه في صورة محفوظ الذي يكتشف جرحًا في ساقه. لماذا بدأت فترات الواقع الكلبى تطول هذه الأيام، وبدأت أجد نفسي كلبًا أكثر من السابق؟.. في الماضي كانت حياتي كلها حلمًا طويلًا لا أكاد أفيق منه.. ربما لأن النهاية اقتربت وربما لأن تلك الفتاة ظهرت في حياة الكلب.. الكلب وقع في الحب وبدأ يفيق على الحقيقة..

حتى لو رددت على خطابي يا فوزي فهذا لا يدل على شيء. ربما أنت مجرد حلم آخر ابتكرته خلايا مخ الكلب. واستجابة الحلم ليست من الواقع في شيء..

هل تعرف ما سافعله؟.. سوف أذهب إلى د. مصطفى مساء اليوم - الثلاثاء - وأقنعه بأن أمضي بضعة أيام في مصحته النفسية. ربما كان الضغط العصبي قد ازداد علي في الفترة الأخيرة. أحمدا لله على أنني مثقف لدرجة تجعلني لا أخجل من قرار كهذا.

محفوظ

عزيزتي هالة:

لا أعرف أين ذهب.. الكلب الذي تتيبني نظراته والذي حكيت لك عنه اختفى تمامًا منذ يوم الثلاثاء. أرجو ألا تكون سيارة قد نهمت في مكان ما. أعرف أنني أقول هذيأنًا لكنني بالفعل أفقده. أفقده بشدة!..

غادة

كنت هناك

نحيل البنيان، أسمر اللون، له شعر أشعث شاب معظمه، وإن غطى
أكثره بقلنسوة صوفية متسقة... يلبس سترة جلدية حال لونها يدس
بديه في جيبيها، وعلى وجهه نظرة حائرة غائبة عن الوعي....

قدرت أنه في الستين من العمر، وأن حاله في منتهى السوء من
النواحي الصحية والعائلية والمالية.. هذه سن يجب أن يستريح فيها
المرء، لا أن يجد نفسه تائهاً تتقاذفه الطرقات والأزقة..

كانت هذه زيارتي الثالثة للولايات المتحدة.. هذه المرة زوجتي معي
في تلك الكافتيريا الصغيرة النظيفة المظلة على الطريق السريع في
(بنسلفانيا).. لم يكن هناك كثيرون في المكان، لذا قدرت أن هذا القادم
سوف يتبادل معي عبارة ما...

رأيت بالفعل يتجه إلى المنضدة التي اجلس عليها..

هتفت زوجتي في زعم:

.. "أبعده يا (محفوظ)!"

لكني لم أر داعياً لذلك.. قد يكون مزعجاً.. قد يكون قهراً.. لكنه
بالتأكيد ليس خطراً أكثر من فأر صغير يعبث جوار قدميك.. يمكنك أن
تركه في أية لحظة، لكن من قال إن النساء لا يخفن الفئران؟

.. "(محفوظ)... أرجوك أبعده عنا!"

فتح الرجل فمه المملئ بأسنان نخرة، وكور شفثيه وأطلق الكلمة
ممدودة طويلة كأنه نثب يعوي:

.. "بووووووووووذ!"

لم تكن زوجتي تعرف حرفاً من الانجليزية، لهذا افترضت أن الرجل
يقول شيئاً قريباً من (هاووي) أو شيئاً من هذا القبيل.. لكنني شرحت لها
بالعربية أن هذا الرجل هو الذي يلقاه المرء لو دخل أي بار في العالم..
السكر الذي يتسول كأساً من الخمر booze..

ضحك الرجل ذو العويقات الجالس قرينا ضحكة من يعرف
هذا الموقف...

جاءت الفتاة النادلة الضخمة قوية العضلات، وصاحت في غيظ:
"قلت لك الا تضايق الزبائن!"

كان اسمها على صدر ال يونيفورم، فقلت لها في تهذيب:
"دعيه يا (لندا).. أرجو أن تحضري له ما يريد على حسابي..
"هل أحضر له بيعة؟"
"أي شيء..."

قيدت ما طلبته في المفكرة ودفعتها في جيب التنورة، ثم هزت
أصبعها منذرة في وجه الرجل وابتعدت.. يبدو أن هذه كانت غلطة
عمري لأنه جذب مقعدًا وجلس إلى مائدتي!
صاحت زوجتي في رعب:
"أرأيت؟.. كان عليك أن تكون فظًا معه.."

هنا مال الرجل على المنضدة ليصير وجهه غير الحليق قريبًا من
وجهي.. وهمس:
"الحكومة الأمريكية لا تريد من يتكلم.. يحسبون أنهم يعرفون ما
يفعلون لكنهم مجموعة من الحمقى."
قلت في ذهول:
"حقًا؟"

قال وعيناه الثملتان تتسعان:
"حاولوا أن يفرسوني.. لكن هيهات.. أنا كنت هناك.. أؤكد لك
ذلك.. لقد حكى (فنتسنت جاديس) القصة في كتابه الذي نسيت



اسمه.. لقد صدر عام 1965.. لن أنسى هذا التاريخ لأنه تاريخ طلاقى من (كلارا).."

هنا جاءت الساقية بزجاجة جعة صغيرة وضعتها أمامه، ثم قالت لي:

"سوف يحكي لك القصة ذاتها كالعادة.. لو أردت التخلص منه فلتعتمد علي"

هنا قال السكير وهو يصب السائل الأصفر الرغوي بيد ترتجف:
"د. (هرانكلين رينو) كان هناك.. أنا رأيته ولم أكلمه.. كنت مجرد بحار صغير قليل الشأن.. قالوا لي إنه عبقرى وأنه يفهم نظريات (أينشتاين).. لم أفهم.. فقط قال لنا القبطان إن ما سيحدث سوف يغير التاريخ.."

ثم نظر خارج النافذة متأملاً وقال:

"كان هذا أكتوبر.. أكتوبر عام 1943.. الطقس بارد لأنه شتاء مبكر.. والحرب مستمرة في كل مكان.. لكن (هتلر) العجوز كان على وشك الانتهاء.. نحن عرفنا هذا.. كان معي (كارلوس ألفونس) و(ديك بريسون) و.. نسيت أسماء الباقين.."

ثم جرح جرعة كبيرة وتجشأ وقال:

"لقد مررنا بشيء مشابه في الصيف.. لكننا لم نشعر إلا بفشيان بسيط.. لكن الحكومة لم ترض عن نتائج تلك التجربة.. لقد تحولت للدمرة إلى ضباب أخضر.. ولك أن تتصور ما حدث لي.. لقد أفرغت كل معدتي وظللت مريضاً شهرين.. لم أعرف أنهم ينوون إعادة التجربة في ظروف أقوى.. على أننا في ذلك الصباح البارد خرجنا بالدمرة (الدرج) الشابة الحسنة التي دسقت في أول الصيف.. كنا عائدتين من مهمة في البهاما.. ثم قالوا لنا إن علينا التواجد في فيلادلفيا.."

وفي اليوم السابق جاء (الونش) ليرفع مولدات هائلة الحجم إلى ظهر
المدمرة..

"كنت أنا أعمل مع (المكنجية) في القاع.. لم أكن أعرف شيئاً.. لكن
(بيك) نزل لنا وقال إن المشهد مثير فوق ويجب أن نراه..
"خرجت إلى السطح لأجد أن ضباباً أزرق يحيط بالسفينة.. ضباباً
مخيفاً يزداد كثافة من لحظة لأخرى.."

هنا صاحبت زوجتي:

"ماذا تقولون؟"

أشرت لها أن تلزم الصمت.. بينما نجشأ الرجل وصب لنفسه
المزيد وقال:

"لم نعد مسعتي تتحمل الكثير من البيرة.. البروسناتا والمثانة.. لا
استطيع التخلص من كل كميات البول هذه.. ما علينا.. أين توقفت؟"
"الضباب على السطح.."

"نعم.. نعم... الضباب.. يتزايد.. يتزايد.. وفجأة فطنت إلى أننا لا
نقف على ظهر السفينة.. لم أعد أرى أي شيء من السفينة.. تحتي ماء..
أمامي ماء.. لكني لا ألسه.. وشعرت بفثيان مرعب.. خيطان يوشك على
أن يمزق أحشائي فأفرغت كل شيء.."

"هنا ظهر (بيك) وكان يقول لي وهو يمسك برأسه: أنا أشعر
بأنني.. أنفي.. سأنفجر يا (ويلي).. ثم سقط على الأرض... الأرض
التي لا أراها.. كانت هناك عارضة في هذا المكان تتصل بها حبال
المرساة، ورأيت يسقط في ذلك الموضع بالضبط.."

"رغبت عيني فرأيت الرجال يتساقطون الواحد تلو الآخر.. كلهم
يصرخ.. ثم سمعت القبطان يصيح: أوقفوا المولدات!.. أوقفوها.. هنا
بدأت أرى السفينة.. أرى الجدران وأرى المرساة وأرى الحواجز المعنية

المحيطة بوحدة المدفعية.. لقد كان (ديك) ملتصقاً بالمعدن التحاماً كاملاً بحيث صاراً عجينة واحدة.. فقط كان رأسه حراً وما زالت الصرخة على وجهه.. ورأيت بحاراً يخرج نصفه العلوي بينما ناب نصفه السفلي في الأرضية تماماً.. هذه الموجات اللعينة كانت تذيبك وتدمجك بأي معدن تكون ملائماً له... هذا آخر شيء أنكره لأنني غبت عن الوعي.."

وصب لنفسه بعض الشراب ويده ترتجف..

رفعت عيني لأرى ذلك الرجل القصير ذا العوينات يبتسم ابتسامته المزعجة الفاحمة..

واصل السكير سرد قصته:

"في المستشفى جاءتنا لجنة من العسكريين.. قالوا لنا إننا لم نر ما حسبنا أننا رأيناه.. قالوا لنا إننا كنا نخراب.. قالوا لنا إن أي كلام عن الموضوع سوف يقابل بعقاب شديد.. وهكذا وجدت نفسي وقد سرحت من الجيش.. وكانت الحرب قريبة من نهايتها على كل حال.."

وكما يحدث مع السكارى غالباً بدا بيكي ويولول:

"انتهى (ديك)... لما (كارلوس) فقد استطاع أن يصل للصحافة ويحكي القصة.. هذه القصة كتبها (فنسنت جاديس) في كتاب شهير.. صدر عام 1965.. أؤكد لك هذا لأنه تاريخ حقيقي.."

ثم واصل البكاء:

"الحكومة الأمريكية تنفي أن أي شيء من هذا حدث.. تقول إننا كنا نخراب.. وأنا أقول: لماذا لم يطلبوا رأينا قبل التجربة؟.. كان مكتوباً علينا أن نذوب وننتلش.. نجوت بمعجزة ما، لكنني أتساءل اليوم إن لم يكن الأفضل لي أن أذوب مع من ذابوا.."

ثم ألقى برأسه على المنضدة وراح في سبات عميق...



كانت يده على بعد نصف متر من زوجتي، فحملتها من الكم في
اشمئزاز كأنها تمسك بفأر، ووضعتها بعيداً عنها..

هنا تدخل الرجل ذو العوينات الجالس خلفي وقال:

.. لا تندعش.. هؤلاء المجانين كثيرون هنا.. إنه يحكي المعتقد الشعبي
الشائع عن تجربة (فيلادلفيا).. التجربة التي يزعمون أن الحكومة
الأمريكية أجرتها وجعلت بها عمرة كاملة غير مرئية..

قلت في دهشة:

.. هل هناك شيء كهذا؟

قال ضاحكاً:

.. العالم الذي ذكر اسمه هو د. (فرانكلين رينو).. الذي طبق نظريات
أينشتاين الخاصة بالحقل الموحد، وطبقاً لهذه النظريات فإنه باستعمال
جهاز خاص يتعامل مع الجاذبية الأرضية والموجات الكهرومغناطيسية
فإن الضوء يمكن أن يتقوس حول جسم بحيث يجعله غير مرئي.. هذه
النظرية حقيقية وقد سأل لها لعاب الحكومة الأمريكية.. تخيل جيشاً
غير مرئي يدمر وينسف وأنت لا تراه!

قلت له:

.. ولماذا تكذبها إذن؟

قال في ثقة:

.. الحقيقة أنك تحتاج إلى مولد بحجم الشمس كي تتمكن من تقويس
الضوء حول جسم بحيث يصير غير مرئي.. الحقيقة أن المولدات
سحقت الماء فتصاعد البخار وحدثت ظاهرة السراب.. إن السراب يمكن
أن يخدع أي واحد، لهذا خيل لمن يقفون على الشاطئ أن المدمرة اختفت
فعللاً.. عندما ندقق في القصة نجد أنه لم يحكها سوى شخص واحد من

طاقم المدمرة يدعى (كارلوس اليندس) في كل المصادر.. كل المصادر
التالية هي إعادة سرديا قائله...

"لم يطور أينشتاين قط نظرية (الحقل الموحد) حتى وفاته عام
1955.. ويرى العلماء أن منطقته كان خطأ أصلاً.. وحتى اليوم لا
يعرف العلم طريقة ينحني بها حقل كهربي أو مغناطيسي حول جسم
ما بحيث يصير خفيًا.."

ثم لشعل لفافة تبغ وقال:

"الحقيقة أن تجربة فيلادلفيا ممتعة بالنسبة لهواة الأشياء الغامضة
وهواة نظرية المؤامرة، لكنها غارية من الحقيقة.. لقد صنع البعض
ثروات هائلة من وراء الكتابة عنها، لكنها لا تصمد للتدقيق.."
جاءت السالبة ونظرت باشمئزاز للرجل النائم، فتناولتها حسابها
مع البقشيش..

سألتني:

"هل أنتما عربيان؟"

هزرت رأسي.. وتأبطت ذراع زوجتي خارجين من هذه
الكافتيريا..

فقط على الباب سألتني زوجتي:

"لم ألقه حرقاً مما يقال.. يجب أن تعلمني هذه اللغة اللعينة.."
"حاضر.."

"ويد هذا الرجل الكبير.. ماذا دهاها؟.. هل هو الجذام؟"

نظرت لها في غير فهم فقالت:

"ألم تلحظ أن أصابعه كلها ملتصمة ببعضها كقطعة من العجين؟"

ألم تلحظ أن سوار الساعة المعدني يقتلط باللحم كأنهما شيء واحد؟..
لهذا أبعث يده في اشمئزاز عندما أدناها مني.."

نظرت إلى الكافيتيريا والرجل النائم.. وهزرت رأسي..

قلت لها ونحن نبتعد:

“مجرد أسطورة يحبها هواة نظرية المؤامرة . أسطورة لا تصمد

أمام التدقيق“



يوم الأحد الكئيب

حزين هو يوم الأحد.. أمضيه مع الظلال..

قلبي وأنا قد قررنا أن تنتهي كل شيء..

قريباً سوف تكون هناك شموع وصلوات حزينة.. أعرف هذا..

قل لهم ألا يبكوا.. قل لهم إنني سعيدة للرحيل..

لأول مرة ليس حزيناً لأنني في الموت المسك..

وبآخر نفس في روعي أباركك..

يوم الأحد الكئيب..

كنت أحلم، وصحوت لأجندك نائماً في أعماق قلبي..

سوف يخبرك قلبي كم افتقدك

كانت كلمات الأغنية الإنجليزية جميلة، وقد استمعت لها عدة مرات

في سيارتي. اللحن كذلك وصوت المطرب الذي لا أعرف اسمه كانا مؤثرين.

أعرف أن كل ما يمت له (رواية) رقيق شفاف حزين، ولكن يجب

ألا أخلط بين الأمور. من الممكن أن يكون المرء شفافاً رقيقاً - لا مانع - ويكون كذلك لصفاً غيبياً..

(رواية) دخلت مكنتي أمس.. كانت دامة العينين. جلست تنظر إلى

الأرض بعض الوقت لا تجد ما تقول فطلبت لها مشروباً غازياً، وأنا أعرف ما ستقول..

قالت لي إنها آسفة.. قالت إنها نادمة على ما حدث.. قالت إنها

ستكون أفضل..

لست قاسياً بطبعي لكنني أكره أن يعتبرني أحدهم أحق. هذه الدموع

الرقيقة ما كانت لتسيل لو كان لديها ضمير يؤدي عمله جيداً. من قال

إن اللصوص لا يبكون عند ضبطهم؟.. اللصوص يبكون وكذلك القتل

والمنهات في قضايا الآداب.. كلهم يبكون بكاء حاراً عندما يكتشف

أمرهم.. فهل هذا يدل على وجود ضمير؟.. يدل على صحة الضمير لكنه لا يدل على وجوده إن فهمت ما أعنيه..

قلت لها إنني آسف كذلك . أنا لست مسئولاً عن هذه الرسالة لحظة واحدة بعد ذلك. فلتفعل ما تريد. فلترسل طوب الأرض ينصحنني بالتراجع. فلتتصل بزوجتي كعادتها. فلتكلم بـ سلاح صديق عمري. أنا متصلب الرأي عنيد ولن يتغير موقفي.

نظرت للأرض فاستطالت أهدابها أكثر . فتشفت في حقيبتها عن شيء ثم ناولتني شريطاً.. شريط كاسيت ملفوفاً في ورقة، وقالت: "سوف أرحل فلن ترى وجهي ثانية، لكن يرضيني أن تتذكرني من وقت لآخر، لذا أرجوك أن تسمع هذا الشريط وأنت وحدك"

نظرت للشريط في حيرة. ليس لدي الوقت لسماع شريط اعتذار أو اعتراف بحبها العميق لي. لا أحد يصغي لاعتراف بالحب من فتاة تمر بظروف هذه لأنها لن تقول سوى الكذب.. فهمت نظراتي فقالت:

"هي مجرد أغنية.. أنت تعرف أنني كنت في الخارج منذ شهرين، وقد راقبت لي هذه الأغنية وأنا أرجو أن تسمعها"

هكذا انصرفت.. فتاة حساسة رفيقة وأنا اعتدت أن هذه الشخصيات الحساسة تؤذي الآخرين وتؤلمهم طيلة الوقت ، وقدماً قال أوسكار وايلد إن الشخص الحساس هو شخص يدرس على أقدام الناس جميعاً لأن قدمه هو تؤلمه..

استمعت إلى الشريط في السيارة على سبيل الفضول فلم أجد سوى تلك الأغنية (يوم الأحد للكثير) وهي أغنية جميلة فعلاً كلها شجن كأنها وردي ذابلة، لكن هل تتوقع مني رانية أن أسمعها فابكي وأهرع لها لأقول إنني آسف؟..



(رانية) غير متزوجة.. (رانية) حسناء ثرية أنيقة جدًا.. (رانية) تحضر لدرجة الماجستير وأنا المشرف على رسالتها.. (رانية) تسافر كثيرًا للخارج، وفي وسعها أن تحضر معها ما تريد من مراجع. عندما قدمت لي تلك المزمعة الأنيقة الفاخرة عدت لداري متوقفاً أن أجد عملاً رائعاً جديراً بوجهها الجميل. بالواقع بدا لي الأمر محكماً أكثر من اللازم. بعد نصف ساعة بدأت أقهر.. هذه الرسالة مسروقة بالكامل من إحدى رسائل جامعة الزقازيق، ومن حظها العاثر أن لدي نسخة منها.

رفعت سماعة الهاتف وطلبتها وقلت لها رأيي.. أنت لصة يا (رانية).. هذه سرقة علمية لا شك فيها، وأنا آسف لأنني وثقت بك. منذ هذه اللحظة أنا أرفض الإشراف على رسالتك..

..د. محفوظ.. أنا آسفة..

..وأنا كذلك آسف..

رانية ترسل لي الكثيرين من أصدقائي يطلبون أن أنسى الأمر.. أن أعطيها فرصة أخرى. أشخاص مهمون يتصلون بي. زوجتي تسألني عن سبب ضيقي من رانية بينما كانت لهجتي لا تخفي إعجابي بها. لا أطيق أن يسخر أحدهم من ذكائي.. اسفروا من شكلي.. من ثيابي.. من سيارتي.. من أنفي.. لكن لا تسفروا من عقلي من فضلكم فهذه إهانة بالغة.

في البيت قمت بتشغيل الشريط وجلست في غرفة مكثبي أدون بعض المسودات. كلمات حزينة فعلاً.. اللحن نفسه يوحى بالنهاية..

عند منتصف الليل نام الجميع وظللت وحدي في المكتب أنظر لضوء الأباжورة والخلال المرسمة على الجدران. في ظروف كهذه جلس صديقي وتلميذي (فوزي) وحيداً قبل أن يفجر رأسه بطلقة مسدس. يوماً بعد يوم يرحل رفاقي وغداً يرحل أولادي وغداً أصير وحدي

تمامًا.. هل حققت في حياتي شيئًا حقًا؟.. لا أعرف.. كلام في كلام..
هواه في هواه..

من أنا؟.. وهل حقًا ما زلت ذات الشخص الذي كنته منذ عام؟.. منذ
شهر؟.. منذ ثلاث دقائق؟

اتأمل وجهي في المرآة فأرى ملامح عابسة متجهمة لا تبعث
الطمأنينة في النفس.. الواقع أنني أستطيع أن أفهم كيف يبلغ المرء مقت
النفس حتى ليفجر رأسه.. هذا شيء مفهوم..

هكذا ظلت في اكتئاب يعتصر قلبي وقنوط لا أرى له مبررًا حتى
الصباح.. من الصدفة أنه صباح الأحد.. سيكون أحدًا كثيرًا جديدًا
بالأغنية.

ذهبت إلى العمل.. هناك قابلت د. (صلاح) صديقي العزيز، الذي
قال لي وهو يرمق وجهي:

.. "تبدو لي ميتًا.."

.. "هذا حق.. أنا ميت فعلاً.."

وأطرقت ورحت أرشف قدح القهوة الذي طلبته بينما ألتفت لأحدًا
يتروّد في ذهني.. قال لي في دهشة كأنه تذكر شيئًا:

.. "ما هذا اللحن الغريب؟"

.. "لا أدري.. ربما أغنية سمعتها أمس.. لا أذكر.. نعم.. هو كذلك.."

أغنية سمعتها أمس"

قال في دهشة:

.. "سمعة هذه الأغنية سيئة في الولايات المتحدة.. أنت تعرف أنني

قضيت فترة طويلة هناك.. يطلقون عليها اسم (أغنية الانتحار المجرية).."

يدهشني أنك تعرفها"

.. "لا أفهم.. هل أصلها مجري؟"

هز رأسه أن نعم ووعدني بأن يحاول تذكر القصة لأنه لا يذكر التفاصيل، ونصحني بأن أعود للبيت مبكراً لأنني مرهق.

اتصل بي قبيل المغرب وكان متوتراً جداً. قال لي:

“لقد استرجعت كل البيانات بصدور أغنييتك هذه.. لقد كتبها شاعر مجري اسمه (لازلو يافور). دخلت الولايات المتحدة عام 1936 وراقت لبعض المطربين الذين جعلوا شعراء منهم (سام لويس) و(دزموند كارتير) يترجمون كلماتها إلى الإنجليزية.. من هنا نشأت سمعتها السيئة”

“آية سمعة سيئة؟”

“أنها تغري من يسمعها بالانتحار!.. هذه أسطورة حضرية لكنها قوية جداً. ما زاد الطين بلة هو أن مؤلفها المجري انتحر عام 1968.. وثب من النافذة. تكور انتحار الكثيرين بعد سماعها حتى أنها حُرمت في بلدان كثيرة.. علماء النفس يتفنون هذا الموضوع ويقولون إن سلوك الانتحار معد بطبيعته. مثلاً في قصة جوته الشاعر الألماني العظيم (الام فرثر) أطلق البطل الرصاص على رأسه، وبعد نشرها بدأ عدد كبير من الشباب الفاضل في النصب ينتحر بذات الطريقة. وقد أطلقوا على هذا اسم (تأثير فرثر)..”

ثم صمت قليلاً قبل أن يضيف:

“لكن هذه كلها خرافات طيِّفا..”

“حزين هو يوم الأحد.. أمضيه مع الظلال..”

قلبي وأنا قد قررنا أن ننهي كل شيء..

قريباً سوف تكون هناك شموع وصلوات حزينة.. أعرف هذا..

قل لهم ألا يبكوا.. قل لهم إنني سعيدة للرحيل..”

كانت الأغنية تتردد في رأسي ومعها عش دبابير. لماذا قضيت ليلة



أمس أعقت نفسي إلى درجة الجنون؟. لماذا بدت لي فكرة الانتحار مقبولة إلى هذا الحد؟.. هل هي تلك الأغنية اللعينة بجوها المقبض؟
(رائية) ليست ساذجة.. لماذا اختارت لي هذه الأغنية بالذات كهدية؟..
أغنية عن الانتحار تقدمها للرجل الذي يملك خراب بيتها، وأراد أن
لم تحاول أن تسمعها..

سواء كانت هذه الأغنية خرافة حضرية أم حقيقة فمن الواجب أن
أنتخلص من هذا الشريط المشؤم. لا يجب أن يسمعها واحد يعرف
الإنجليزية.

دخلت إلى مكثبي وفتحت جهاز الكاسيت فوجدته فارغاً. من أخذ
الشريط؟.. خرجت إلى الصالة وناديت زوجتي فجاءت من المطبخ
وهي تمسح يدها من أثر الطهي. سألتها عن الشريط فقالت:
" (محمود) كان يبحث عن شريط جديد يسمعه.. دخل غرفة المكتب..
ربما كان هو؟"

محمود هو ابني المراهق طيقاً، وهو يجيد الإنجليزية لأنه في مدارس
لغات منذ صغره.
- "واين محمود؟"
- "لا أعرف"

انفجرت صارخاً فيها واصفاً إياها بالبلاهة وعدم المسؤولية.. هي لا
تفهم حرفاً من الإنجليزية ولو سمعت عشرة شرائط فلن تفهم شيئاً.
رجت أفتش عن الفتى في كل غرفة وسألت أخوته عنه. فقط وجدت
الشريط في جهاز الكاسيت في غرفته. قالت لي زوجتي مهددة:
" هذا هو الشريط.. لا تقلق.. أنت تعرف أنه يحافظ على كل
شيء.."

ثم تذكرت فقالت في غيظ:

.. هل لأنه من (رائية) هاتم تحدث كل هذا الصخب؟

كان قد سمع الألفية. عرفت هذا عندما قمت بتشغيل الشريط. هكذا خرجت من الشقة مسرعًا وقلبي يتواثب في فمي. أين يمكن أن أجده وكيف؟... هنا رأيت نورًا غامضًا يتعرب من تلك الفرجة عند السطح. نور بنو الغروب المميز الأرجواني.. هناك شخص قد فتح السطح وخرج..

وثبت الدرجات أربعًا وقلبي يسبقني في الوثب. صبرًا يا محفوظ.. لا تكن أحمق.. كل هذه أسطورة حضورية لا أساس لها من الصحة.. الفتاة أرادت إيذاءك بلا شك لكن هل حاولتها تلك ذات قيمة؟ بلفت عبر باب السطح لأجد آخر منظر توقعته في حياتي.. كان ابني (محمود) يقف هناك على السور سامعًا ينظر للشارع تحته وقد لحنى رأسه على صدره.. كان يبكي..

.. محمود؟

وهرعت نحوه بحذر وشعرت براحة عندما أمسكت بمنامته.. قبضت عليها كفي بقوة وشديته للخلف فلم يقاوم.. سقط على ركبتيه وهو مستمر في البكاء:

.. لا أعرف ما دعاني؟!.. فجأة شعرت أنني مجرد مراقب فاشل في الدراسة والحب وكل شيء!..

.. وهل كنت تنوي أن...؟... قل لي إنك كنت تراغب الشارع لا أكثر..

نظر لي وابتسم في مرارة وقال:

.. بالفعل.. لم انتو أي شيء.. صدقتي.. فقط كنت أسأل نفسي عن شعور الذين يقفزون من مكان مرتفع.. كنت أحسبني أن أهتمهم أبدًا لكنني.. لسبب ما أشعر بأنني أهتمهم

احتضنته ومشيت به نحو باب السطح. سمعته يهمس بشيء ما
هناك حيث كان معه قرب صدري، فسألته عما يقول.. قال:
"لا شيء.. مقطع من أغنية إنجليزية يقول: قلبي وأنا قد قررنا أن
ننهي كل شيء.. لا أنكر أين سمعت هذه الكلمات"
"لم اسمعها قط.. حاول أن تتسنى.."
وكانت الشمس تتحدر نحو المغرب معلنة نهاية يوم الأحد الكئيب...



لأنها رقيقة

دكتور ناجي صديق عزيز.. صحيح أنه شاب يصغرتي بعشرين عامًا، لكنك بهذا تريد ألا أتعامل إلا مع المسنين ذوي المعصي الذين يجتمعون في قهوة (الأسيل) ليلعبوا الدومينو ويشربوا البينسون، ويتحدثوا عن مشاكل الضغط والسكر والمفاصل.. أنا بحاجة للاتصال بالشباب من حين لآخر.. أعتقد أنهم يجددون دمي فعلاً، يمكنني أن أفهم منطق الشيخ الذي يتزوج فتاة في العشرين ليجدد دمه.. فقط أنا لا أتزوجهم لكنني أسمع آراءهم!

د. ناجي يصغرتي بعشرين عامًا، لكني أعتقد أن الناس تكف عن النمو بعد الأربعين.. كلهم يتشابهون ويصغرون في سن واحدة، فلا يوجد شيء غريب في أن تجد شلة أصدقاء بعضهم في الأربعين وبعضهم في الخمسين وبعضهم في الستين.. هذه سن واحدة بشكل ما..

لهذا حكى لي د. ناجي قصته عندما تأخر عن عمله في ذلك اليوم. لا وقت لأخذ السيارة لأن سائس السيارات سيقتضي دهرًا في مسح اللخار عنها، دعت من ضرورة نسخين المحرك لبعض الوقت، لذا وثب د. ناجي إلى أول سيارة أجرة وجدها وطلب من سائسها التوجه للمستشفى...

هنا وأما..

هل قلت لك إنه غير متزوج؟ نعم.. لقد تأخر نوعًا لكنه ما زال شابًا كما قلت لك، وعندما رأى (عابدة) تستوقف سيارة الأجرة بدت له أرواح شيء رآه في حياته. نظر بسرعة إلى يدها اليمنى فالبسرى فلم ير تلك القيد الذهبي.. قال لنفسه إن هذا طبيعي جدًا لأنه لو ظفر رجل بهذا السحر لمات من الفرح.. معنى هذا أنها ستصير أرملة لو قررت أن ترتبط...

لم يعرف وجهتها ولا أي شيء.. لم يسمع أو سمع ولم يميز.. فقط جلست هي في المقعد الخلفي وراءه، وبالطبع كان مرغماً على أن ينظر أمامه.. انطباع عام كونه عنها: رائعة.. لا يعرف أية تفاصيل.. لا يمكن أن يستفرج صورتها من بين ثلاث صور.. لا يعرف كيف تلبس.. لا يعرف أي شيء سوى وهي أعمى عينيه للحظة وجعله يجثو على ركبتيه صريعاً..

السائق يشق شوارع القاهرة وهو يلعن الزحام، ثم يشعل لفافة تبغ..

ما هذا الآن؟.. التفت ناجي إلى الخلف ليتأكد فوجد أن الفتاة تئن بقوة.. تغطي وجهها والعرق يلمر جبينها وهي تحاول كي تنفَس.. قال السائق في زعر وهو يكلم الفتاة في مرآة الرؤية الخلفية: "يا أختي.. هل أنت بخير؟"

هزت رأسها أنها بخير، لكن كل شيء كان يقول إنها في أسوأ حال ممكن..

"هل ترغبين في الذهاب للمستشفى؟.. أنا طبيب وذهبت إلى هناك"

هزت رأسها من جديد بمعنى أنها بخير، وكان ناجي الآن يمر بحالة مزدوجة من الفضول العلمي والاهتمام المهني مع اهتمامه بالفتاة ذاتها.. هكذا مد يده في حبيه وأخرج بطاقة ناولها لها.. "أرجو أن تتصلي بي لو أردت شيئاً.."

كان قد بلغ وجهته الآن فترجل وتقد السائق ماله والسائق ينظر له نظرة مستغنية لا بد أن معناها (ابق معي حتى أتخلص من هذه المصيبة.. ترى من النفس الذي رأيت وجهه في الصباح؟).



فتاة رقيقة - قال ناجي لنفسه - ولأنها رقيقة فهي تفقد وميها كل
ثلاث دقائق. هذا هو التوصيف الفكتوري للأمور.. تشحب ثم تصرخ
وتسقط على الأرض كزهره ذابلة.. إن عصبهن الحائر يجعل بكفاءة
أكثر من اللازم، دعك من تأثير الحر الخائق ولقافة تبغ السائق.. نعم..
هذا هو كل شيء.. سوف تتحسن من دون تدخل من أحد..

لقد نسى (ناجي) هذا الموقف لكن وجه الفتاة لم يفارقه، وبسط
نفسه يحلم بها في إحدى الليالي. وقد كان الحلم حقيقياً - كما قال
- لدرجة أن أنامله كانت تحمل رائحة شعرها..

سألته في شك:

“أنت شممت رائحة شعرها في عالم الواقع؟”

“بالطبع لا.. لكن لأبد لفتاة مثلها أن تفوح من شعرها رائحة أزهار
السوسن”

“وما رائحة أزهار السوسن؟”

“يا أخي أنت تسأل أسئلة غريبة.. إنها رائحة شعرها طبعاً”

على كل حال لا تنتهي القصص بهذه البساطة. لقد تلقى مكالمات
هاتفية عنها ذات ليلة، وهي المكالمات التي عرف منها أن اسمها (عايدة)...
اسم جميل يلتصق بالرق في ذهنه سواء كانت (عايدة) الارستقراطية
الغوب بعيدة الخيال في ثلاثية (نجيب محفوظ) أو (عايدة) أميرة أوبرا
فيردي الشهيرة...

كانت مهندسة كمبيوتر تعمل في إحدى الشركات التي يحتم
القانون - على ما يبدو - أن يكون اسمها (ماتركس).. في الماضي يبدو
أن القانون كان يحتم أن يكون اسم شركة الكمبيوتر تبادل وتوافق
للحروف (أي سي إس تي) - دولي وكمبيوتر ونظم وتقنية - أما اليوم
فلا بد أن يكون الاسم (ماتركس)..

(عايدة) بخير.. لم تعاودها هذه النوبة ومن المهم أن نذكر أنها لم تحدث لها من قبل.. المهم.. كي لا أطيل عليك، تم الاتفاق على لقاء.. إن قصة الحب تركت ببطء...

في ذلك المركب النيلي جلسا ، وأشعل ناجي لقافة تبغ ونظر إلى النيل الساكن جوارهما وبحث عن شيء يقوله، لكن الفتاة أمسكت برأسها وبدأت تتن...

ثم أنها سقطت على الأرض والعرق يسيل من كل مسامها.. كانت ترتجف بقوة، وخطر له أنها مصابة بنيبوية نقص سكر، لذا اجتهد كي يسقيها بعض العصير على حين احتشد الناس بين الفضول والريبة في المساعدة..

هذه المرة كان لابد أن يحملها حملاً ويطلب من قبطان المركب أن يرسل لهما لنشاً يعيدهما للشط.. وخلال نصف ساعة كان في المستشفى يدفع المحفة مع عاملين وممرضة..

هذه الفتاة مصابة بمرض عضال.. لا شك في هذا..

ثم إجراء بعض الفحوص عليها، وراح هو يطالع نتائج التحاليل فلم ير شيئاً غريباً.. لا تعاني فقر دم ولا نقص سكر.. ضغط دمها على ما يرام وليس ككل الفتيات اللاتي يعتقدن أن واجبهن أن يكون ضغطهن منخفضاً..

في النهاية أفافت وأصررت على أنها بخير.. لابد أن أعود لبيتي لأن أمي لا تعرف أين أنا..

“عديني أن تجري أشعة مقطعية على المخ غداً.. لا.. لنكن أشعة رنين مغناطيسي.. اتفقنا؟“

وحاول أن يوصلها لدارها لكنها أصررت على أن تستقل سيارة أجرة.. هكذا وافق مرغماً.. ووعدها بأن يتصل بها غداً..

في الغد عرف أنها على ما يرام.. قال لها:

”اعتقد أن لدخان السجائر تأثيراً خطيراً عليك..”

التقيا بعد أسبوع وكان رأيه أن حالتها تسوء.. قالت إنها أجرت الأشعة المطلوبة لكن المركز احتفظ بها. عرف أنها تكذب طبعاً لأن مراكز الأشعة لا تحتفظ بأشعائك التي دفعت ثمنها..

”أعطيني اسم المركز.. سوف اتصل بهم لألقنهم درساً أو حتى أعرف محتوى التقرير“:

قالت في ارتباك:

”لم أذكر الاسم.. إنه مركز كبير.. هناك في شارع.. في شارع.. مركز كبير هو..”

الاحتمال الأول هو أنها لم تجر الأشعة بطلاً أو كسلاً أو خوفاً..
الاحتمال الثاني مخيف وهو أنها لا تريده أن يعرف النتيجة..
نتيجة ماذا؟؟

المشكلة أن حالتها تسوء فعلاً. حتى جاء اليوم الذي جاء أبواها بها في المستشفى وطلباً منه أن يدخلها ويعنى بها..

هناك في فراش المستشفى صارت قريبة جداً من عالمه، فلا غرابة أنه لم تعد له حياة خارج المستشفى تقريباً.. وكان أول ما فعله هو أن طلب رأي العديد من الأساتذة.. مشكلة الفتاة هي نوبات تصيبها فتستوي وتفنن. ثم يغمرها الحرق وتدخل في رجفات قوية تذكرك بمرضى الملاريا.. حرارتها ترتفع وتوشك على الاختناق.. هذه النوبات ليست ثابتة.. أحياناً تتحسن الفتاة جداً..

هناك من قال إنها نوبات هستيرية.. هناك من مط شفته السفلى في حيرة وقال: إنها مريضة بشيء ما..



كانت الأمور تسوء.. وجاء اليوم الذي جلس فيه جوار فراشها وأمسك بيدها فارتجفت، وراحت تشهق بلا انقطاع وقالت:
- "أنا أموت.. أعرف هذا يقيناً.. يجب أن تتحرر من وجهي ومن
ذكراي.."

قال في وله:

- "تقولين هذا الهراء في اللحظة التي أعرض عليك فيها الزواج؟"
ضحكت في فسوة وقالت وهي تسعل:

- "هل ترى أمامك عروسةً صالحة؟.. أنا مجرد حقة تتكلم"

وكانت هذه هي المشكلة.. كان يعيش مع أمه.. وكان رأي العجوز
قاسياً لكنه عملي جداً.. الفتاة مصابة بداء عضال لا أحد يعرف اسمه..
لا يمكن أن تبدأ حياتك على أرضية مهتزة كهذه..

هو نفسه لم يكن متأكداً.. هل مرضها معد؟.. هل يؤذي نفسه
بهذا؟.. ربما كان من الأفضل أن يبتعد عنها، لكن كيف؟.. هو يهيم
بها فعلاً..

ولسبب لا يعرفه قرر أن يختبر عواطفه بضعة أيام..

مكث تركها في المستشفى وسافر إلى قريته ثلاثة أيام يحاول
خلالها أن ينظر للصورة من بعيد، للأسف ازداد تعلقاً بها لدرجة أنه
قطع الإجازة وعاد ملهوقاً..

قابلته ممرضة على باب القسم فهتفت:

- "هل رأيت مريضتك يا دكتور؟"

سقط قلبه في قدميه:

- "هل.. هل ماتت؟"

- "بل تحسنت بشدة!.. هذه معجزة!"

مكثا هرع إلى غرفتها ووجدتها جالسة جوار الفراش تنسج بعض

الأزهار في مزهرية، فلما رآته هتفت في فرح.. بصعوبة منعا نفسيهما
من العناق.. يقول تلجي:

..للأسف عادت حالتها تتدهور من جديد.. هذه هي المشكلة التي
دفعتنى لطلب رأيك.. هل أقدم على الزواج مع ما في ذلك من مشاكل
هائلة؟.. المشاكل تظهر بعد الزواج، لكنني في وضع فريد إن أبدأ بالمشاكل
قبل أي شيء.. هل سوف تشفى؟.. هل هذه هستيريا فعلاً؟
قلت له مفكراً:

..في الحقيقة أنجاسر فأقول إن هذه الفتاة ليست لك.. ليست لك
على الإطلاق..

..لماذا؟.. هل تعتقد أن مرضها خطر علي؟

..بل أنت الخطر عليها!.. لو لاحظت لو جدت أنها تتدهور كلما اقتربت
منها أو كلمتها!.. يذكرني الأمر بقصة قديمة للدكتور سعيد عيده اسمها
(وداد).. وداد فتاة قايلاً في القطار وولد الحب بينهما والفرقا، ثم كان
في المستشفى يعاين حالات الجدري حين وجد مريضة تشوه وجهها
تماماً واعتلا بالبثور المقيحة قنز الصديد.. اكتشف أن هذه المريضة
المحتضرة هي وداد.. واكتشف أنه هو من نقل لها الداء الوبيل لأنه
كان كطبيب يحمل العدوى ولم يصب بها.. المسكينة هي التي أصابها
الجدري. باختصار: أنت سبب مرض عايدة!
قال في غباء:

..ماذا تعني؟.. أنا سليم تماماً..

..لكنها ليست سليمة.. إنها مصابة بحساسية شديدة لوجودك..
هذه الأعراض التي تصفها أعراض (فرط تحسس) واضحة.. منذ
قابلتها في سيارة الأجرة بدأت النوبات.. ثم السفينة.. ثم المستشفى
حيث تكفل وجودك بجعل حالتها تسوء.. ثم أنها تعسنت عندما سافرت

لقويتك. تفسيرى الخاص هو أن لكل إنسان منا حالة خاصة تحيط به Aura.. هناك حالات سلبية تؤذي من حولك.. هذه الفتاة مصابة بحساسية خاصة لهالك هذه، وقد وصف (ليديتتر) هذا المرض بالتفصيل في القرن التاسع عشر، لكن بالطبع هناك من يعتقدون أنه نصاب أو مخرف.. عليك أن تتعد من الفتاة فترة طويلة وتجرب.. أعتقد أنها ستتحسن بالتأكيد!

نظر لي طويلاً ثم قال من بين أسنانه:

“لو صح هذا الكلام الفارغ الذي تقوله فأنا اعظم نحس عرفته البشرية.. الفتاة الوحيدة التي خلبت لبي تموت لو ظلت بقربها!”
وبما أن الأيام أثبتت أنني على حق، فلننتي بالفعل أرشحه للقب أكبر منحوس في التاريخ. لكن من يدري؟.. سوف تظل الفتاة حية خالدة رائحة الجمال في ذهنه للأبد (تفوح رائحة السوسن من شعرها).
ولسوف تبقى ذكراها نازاً يستدفن بها في شيخوخته، بينما لو تزوجا فانت تعرف ما كان سيحدث.. إن الذكرى لا تظل جميلة عندما تفرح منها رائحة البصل وصابون الفسيل الرخيص وبول الأطفال والشياطين.. مع لمن من الهموم اليومية. أعتقد أن ناجي ليس منحوساً إلى هذا الحد!

زائر الليل

بعد صلاة العشاء يتجه الأستاذ (رفاعي) إلى تلك المكتب بالطابق الثاني من تلك البناية المتداعية..

يولج المفتاح في القفل، فتهب رائحة العطن معتزجة برائحة حبر الألة الكاتبة والورق وحبر (الرنيو).. لورق (الاستسل) رائحة خلابة برغم أن الجميع ينكرون أنهم يشمونها..

هناك ترقد آلات للطباعة كميئاصورات غافية.. ذات يوم كان المكان يعج بالصخب.. فتيات بلبوم التجارة ألفتات يجلسن وقد وضعن المناشف الصفراء لتخفي المفاتيح عن عيونهن، كما في الامتحان، ورجن يطرقن اللادن ويطرقن المفاتيح.. كليك.. كلاك.. كليك.. كلاك..

ضموضاء اعتبرها شبيهة بالضموضاء الكونية التي يتحدث عنها علماء الفلك..

كلبك.. كلاك.. كليك.. غمزات.. ضحكات.. كلام عن ذلك الشاب الوسيم الذي تقدم له (عواطف).. وتضع (عواطف) يديها في خاصرتها وتصبح في فخر وتحد:

“ليه إن شاء الله؟... أنا حارم رم؟”

هؤلاء يتدربن كي يصرن سكرتيرات، لكنه يعرف ما سيحدث.. سوف يصرن زوجات وتزداد كل واحدة منهن عشرين كيلو جراماً وسوف تأتي ابناتها ذات يوم لتتلقى الدروس عنده..

يتجه إلى المطبخ جوار دورة المياه المسدودة منذ قرون.. يشعل السبرتاية ويعد لنفسه كوباً من الشاي.. يفتح جهاز التلفزيون (نصر) العتيق لتظهر ألوان صورة ممكنة بالأبيض والأسود.. إن عمر هذا التلفزيون لا يقل عن ثلاثين عاماً..

يجلس جوار زجاجة الحبر الصيني وأقلام البسط.. إن الأستاذ رفاعي خطاط ممتاز كذلك.. وسوف ترى أمامه لفظ الجلالة وقد كتبه على خشب المكتب بعدة طرق رائعة الجمال.. كان هو الذي يكتب عناوين الرسائل

والأبحاث . وبعد أن يكتب يضع علامات غريبة تشبه حرف (الدال) حول الكتابة.. يقول لمن يسأله إنها (تملا الفراغات) ..

يوماً ما كان هذا المكان يعج بالحركة والحياة.. كانت هناك سكرتيرة هي واحدة من تلك الفتيات المتدربات.. وكان هناك ناس متجهمون من الذين يؤمنون بأهمية الكلمة يجلسون وعيونهم على الأوراق.. يراقبون أية غلطة ترتكبها البنات.. أساتذة جامعة.. أدباء.. شعراء.. كل واحد جالس يراقب الحروف التي تتراص على الصفحة كأنه صقر، وقد شعر بأن تغيير حرف واحد سوف يغير الكون.. ربما يخرج زحل من مساره ليصطدم بالمشتري.. ربما تفرغ الفيضانات الأرض..

من بين أساتذة الجامعة (اعرف أن الصواب هو أساتيد لكنه الخطأ الذي صارت له قوة القانون) كنت أنا.. هناك في هذا المكتب القابع في زقاق مظلم طبعت رسالة الماجستير، وطبعت مذكرات الطلبة، وطبعت أبحاثي كلها..

حتى المجلة الطلابية التي اشرفت عليها طبعت هنا.. أرسلت تلاميذي له مع توصية خاصة، وهناك وقف الفتية مبهورين بينما آلة (الرنويو) تدور مبعثرة مسحوق الحبر على الورق..

الرائحة...!.. ما أجملها!

ككل شيء دافئ جميل من الماضي بدأت هذه المهنة تندثر.. هناك ذلك الاختراع الجديد المزيج المدعو (كمبيوتر).. هناك منسق الكلمات... تصور أن يكتب الكمبيوتر خطاً عربياً جميلاً...!.. رقاعي رأى هذا الخط وبدأ له صناعياً رقيقاً إلى حد لا يوصف..

الكل يكتب رسائله بالكمبيوتر اليوم.. لا أحد يريد الآلة الكاتبة الجميلة وقطرات (الكوركيتور)... جرب أن يبتاع كمبيوتر مستخدماً وقضى أسود ساعات حياته معه لكنه عاجز تماماً عن فهم كيفية عمل هذا الشيء الشيطاني.. حتى أوضاع الحروف مختلفة على المفاتيح.. لا يمكن تطبيق قواعد اليد اليمنى واليسرى التي كان يدرسها لطلقات الدبلوم..

نصحه البعض بأن يأتي بشباب (ممن يفهمون هذه الأمور)، لكن الموضوع أكبر منه والعمر لم يعد يكفي لهذه التجديدات الثورية.. دكتور جديد وبياض وطابعة ليذر و.. و.. ربما يحتاج تلفزيونًا ملونًا بالريموت كنترول كذلك!

إنه يرتجف كلما فكر في هذه الأمور.. كلا، لم يعد في العمر ما يكفي لهذا السخف..

جاء اليوم الذي ذهبت فيه إلى مكتبه - إن كان لي أن أقول هذا - والحجة الظاهرة هي أن أطبع بحثًا يشترط أن يكون بالآلة الكاتبة، والسبب الحقيقي هو أن استعيد بعض عبق الماضي..

كان قد شاخ حقًا وشعره صار أشيب بالكامل.. كل شيء هنا محزن يذكر بالماضي عندما كان العمل والضحكات لا تنقطع....

سألني وهو يصب لي الشاي عن أحوالي وأولادي.. كان راضيًا بحياته راضيًا عن رزقه.. هذا ما توقعته على كل حال..

ثم سألني في حذر وهو يقلب صفحات بلوك نوت على مكتبه:

.. "أنت تقرأ الإنجليزية.. أليس كذلك؟"

نظرت له في حيرة باسمه.. قضيت معك عمرًا أطبع عندك رسائل كاملة بالإنجليزية... قلت لك ألف مرة إنني أدرس الأدب الإنجليزي، ورغم هذا ما زلت تشك في معرفتي الإنجليزية..

.. "أعرف بعضها.. نعم.."

ناولني مجموعة من الأوراق العتيقة المصفرة مكتوبة بخط اليد وقال:

.. "ما المكتوب هنا؟"

بدلت بعوينات عوينات القراءة وتلحست المكتوب.. هذه لغة لا أعرفها.. بالتأكيد ليست الإنجليزية.. ليست الإيطالية ولا الفرنسية.. إنها لاتينية.. لا شك في هذا..

قال الرجل وقد سمع وجهة نظري:

“خمنت هذا.. أنا أنسخ كالألة ولا أعرف حقاً ما أنسخه لكنني أقابل كلمة هنا وهناك أعرف منها اللغة التي أنسخ بها.. لم أعرف هذه اللغة قط..”
قلت له في فضول وأنا أنزع العوينات:
“من الذي يأتيك بهذا المخطوط؟.. لا أعرف أحدًا يكتب باللاتينية إلا تخصصات نادرة جداً..”

“إنه يأتي في الحادية عشرة ليلاً.. رجل فارح للقامة نحيل بشكل غريب.. يضع عوينات سوداء مع أنه الليل.. جاء منذ أسبوع وطلب مني أن أنسخ بضع صفحات ففعلت.. ثم جاء بعد يومين لأنسخ المزيد.. إنه يدفع بسفاه ولا يتكلم كثيراً.. لكنني لم أفهم بعد..”

ثم راح يبحث بين الأوراق حتى أخرج ورقة منسوخة بآلة تصوير مستندات . وقال:

“كانت الأوراق الأولى بهذا الشكل، وقد قلت له إنني أستطيع محاكاتها بالآلة الكاتبة، لكن هذا يكلف الكثير..”

كانت على الورقة دائرة غير منتظمة مقسمة إلى خانات.. الأبجدية تراصت على الإطار الخارجي.. هناك أسهم ورموز.. كأنه تقويم من نوع ما.. لا أعرف معنى هذا لكنه بالتأكيد اتعب رفاعي كثيراً....
“قمت بنسخها لأنني شككت في الأمر..”

نظرت للأوراق.. وفي كل لحظة أشعر بدعشة أكبر.. ما الذي يدفع المرء إلى نسخ هذه النصوص؟.. ولماذا يفعل هذا بآلة كاتبة وليس بالكمبيوتر؟
قلت له:

“هل يمكن أن تعطيني نسخة من هذه الأوراق؟.. أريد أن أعرف كنهها..”

نهض في ثققل ليرفع غطاء قماشياً متسخاً عن آلة تصوير عتيقة في ركن المكان.. ضغط زرّاً فبدأت تسخن كأنها ديناصور غاف منذ قرون قرر أن ينهض.. ثم وضع الورقة الأولى فراحت الآلة تهدر خرجت ورقة في أسوأ حال فناولها لي وبس الورقة الثانية.. فالثالثة و...



هنا سمعنا صوت خطوات على الدرج..

انشعبت عيناه وهتف في رعب:

.. "الحادية عشرة!.. إنه موعد!.. يجب ان ترحل وإلا فهم ما يدور

هنا!..."

لا وقت لأن الخطوات تقترب على الدرج.. خطوات ثابتة على الدرج

الرطب المتآكل...

لسبب ما شعرت بالذعر.. زعر مثل تفكيرى المنطقي.. دخلت الحمام

المجاور لي وأغلقت على نفسي في الظلام.. رائحة كريهة جداً لكنني لم

اعرف موضعاً آخر اتوارى فيه..

سمعت صوتاً عميقاً يسأل:

.. "هل انتهيت يا استاذ رفاعي؟"

صوت رفاعي يحاول أن يبدو هادئاً.. يقول:

.. "ليس بعد.. ليس بعد..."

ثم صوت الرجل يقول فجأة:

.. "ماذا تفعله بالضبط؟.. قلت لك ألا تحاول نسخ أي شيء!..."

من المربعب أن الغضب لم يتبد في صوته قط... كان يتكلم بطريقة

تقريرية مريحة.. وجاء صوت رفاعي بصيح:

.. "خفت على الأصل.. لا أكثر..."

في هذه اللحظة كان صوتهما يدل على أنهما يقفان جوار آلة التصوير..

لو غابرت الآن فلن يراني الضيف ولا عفت رفاعي من هرج كبير.. هكذا

فتحت باب الحمام.. وبخفة اندفعت إلى الباب الخارجي الموارب، وسرعت

ما كنت أمشي في الحارة المظلمة وسط تباح الكلاب وعواء القطط...

في الصباح اتجهت إلى د. (ميخائيل حنا) أستاذ اللغة اللاتينية..

الشخص الوحيد الذي أعرفه ويحيد هذه اللغة الشنيعة..

رحب بي في حارة وتبادلنا الزاح، ثم جاءت القهوة ومعها وقت
الاستلة..

أخرجت الورقتين اللتين ظفرت بهما ووضعتهما تحت أنفه.. فتراجع
مجفلاً وقال:
"ما هذا؟"

"حسبت أنك المخول بإعطائي هذه الإجابة.."

تفحص الورقة الأولى جيئاً ثم قال:

"ألم تجد آلة تصوير مستندات العن من هذه؟"

"إنها آلة عتيقة لم تخضع لصيانة منذ عشرة أعوام.. لكن هل بوسعك
قراءة شيء؟"

راح يتفحص الورقتين ويراجع قواميسه ثم قال:

"هذه لغة لاتينية عتيقة جداً.. لا أفهم أكثر للوجود لكنها تتعلق بسر
قديم.. أعتقد أنه سر كان المسحرة يتداولونه، وأنت تعرف أن المسحرة كانوا
يفضلون اللاتينية... هناك طرق للتخاطب مع مخلوقات العالم السفلي..
لكن أهم من هذا أن هناك تحذيراً واضحاً.."
"وما هو؟"

"لا تنسخ أو تنقل ما كتب هنا وإلا لآليت الهول الأعظم.."

ثم ناولني الأوراق وقال:

"هذا منطقي.. المفترض أن هذه أسرار غاية في الخطورة.. هذا تحذير
كي يمنع تداولها.. من أين جئت بهذا الكلام الفارغ؟"
شكرته ولم أجب، وانصرفت غارقاً في التفكير..

الزائر الذي يزور رفاعي في الحادية عشرة مساء مهتم بهذه الأمور..
يريد أن يستنقذ الأوراق المصفرة البالية لكنه لا يجد الشجاعة كي
يصورها أو ينسخها بنفسه.. لهذا وجد لنفسه كبش فداء في شخص

رفاعي اللبائس.. رفاعي سوف يتسخ الأوراق غير عالم بمحتواها.. وإن
كان هناك شخص سيلقى الهول الأعظم فهو رفاعي ذاته...
لهذا يجزل له العطاء..

لا شك أنه اختار رفاعي لأنه يعمل وحده في مكان منعزل قفر..
مكاتب الكمبيوتر بشبايها الصاخبين لا تقاسبه.. هناك يسألون أسئلة
كثيرة.. هناك يمزحون.. هناك يحتفظون بنسخ من الملفات على القرص
الصلب..

الساعة الآن الثانية بعد الظهر..

سوف يصغر مني رفاعي لكنني بالفعل بحاجة إلى أن أحذره.. الأمر كله
مشكور مقبض وعليه أن يعرف أن زائر الليل ليس مجرد زبون سخي...
اتجهت إلى الحارة الضيقة التي امتلات الآن بالصخب وعربة فول
التف حولها الطاعمون.. لكن الحارة كانت مسدودة عند طرفها الآخر..
عربة الإسعاف الواقفة كانت هي السبب..

وسرعان ما رأيت المحفة، والمسعفين يرفعانها إلى مستوى العربة..
لم يكن هناك أحد يهتم.. فقط بعض الصبية الفضوليين الذين يكرهون أن
يقابلوا جثة ولا يلقوا نظرة...

بنوت أكثر وأزحمت الملاءة عن وجهه برغم احتجاج أحد المسعفين
فرايت وجه العجوز الطيب.. رأيت وجه العجوز الطيب وقد تقلص ذمراً
وهلعاً (كانه لاقى الهول الأعظم)...

رفعت عيناً متسائلة إلى أحد المسعفين فقال:

“نوبة قلبية على الأرجح.. لم يعرف أحد حتى لاحظت إحدى الجارات
أن الشقة مفتوحة بينما هو لا يفتحها إلا ليلاً...”
تركته وأسربت لرقى الدرج للمهشم الرطب...

الشقة الفارغة مفتوحة.. كل شيء كما هو.. كما تركته أمس...

هناك رجلا شرطة ينظران لي في دهشة... كانت عيناوي على المكتب



المعدني الصغير.. المكتب الذي نصبت عليه عوينات القراءة أمس عندما
فررت من الشقة..

لم تكن هناك.....

فقط كان البلوك نوت موضوعاً على المكتب وقد انتزعت منه ورقة..
برغم هذا كانت بقايا العبارة التي كتبت في تلك الورقة محفورة بعنف
وقسوة على الصفحة التالية الفارغة..

تأملت الكتابة المحفورة.. العبارة التي دونها الغريب كي لا ينسى..
العبارة التي حملها ومعها عويناتي.....

الدكتور (محفوظ حجازي).... أستاذ الأدب الإنجليزي بكلية
(٩٩٩٩٩٩٩٩) ..



بيضة ودجاجة

آخر الليل.. وذلك الشعور بالشجن في ذلك المقهى الذي تناثرت في أرجائه علب الصمن الفارغة التي زرعوا فيها الياسمين كأنها أصص.. ساحة واسعة مسقوفة. ومن السقف تتدلى نباتات الظل، هناك زثر ماء يقف على حامل ثلاثي. مع الإضاءة الخافتة الجميلة..

يأتيك (خميس) بصينية عليها كوب الشاي ذو اللون الياقوتي الجميل، وعلى طبق صغير بضعة أوراق من النعناع.. تشعر بأنك تستعيد روحك مع رشقات الشاي بالنعناع. تفرقر الشيشة في مكان ما، فتصاعد رائحتها المسكرة إلى أنفك.. أنا لا أأخذ الشيشة إلا لما كنت أحب رائحتها وجو النكهة الذي تبعثه من حولها..

في مكان كهذا يصعب أن ترى شبابًا.. إنه أكثر هدوءًا ووقارًا وشعبية مما يناسبهم.. في مكان كهذا يستحيل أن ترى جهاز تلفزيون يعرض الفيديو كليب.. يستحيل أن ترى فتاة تشرب الشيشة كذلك العادة اللعينة التي لا أصدقها حتى اللحظة.. يستحيل أن تدخن المرأة الشيشة بمزاجها ما لم تكن مطعنة في المديح.. أعتقد أنها تدخنها لأن لها زوجًا أو خطيبًا أحقق يعتقد أنها بهذا تصير مغرية.. ثم يأتي الأستاذ (محروس)..

تعرفه من ثيلبه الرقة التي توحى بعزم مضى، وتعرفه من العود الذي يجعله ومن نظارته السمكية التي توشك أن تجعله يبدو كالمكفوفين، برغم أنه كان مبصرًا... تلك اللمسة والبسمة الواثقة الخافتة المميزة للموسيقار العبقري الكفيف... سيد مكاوي.. الشيخ إمام.. ستيفي واندر.. عمار الشريعي..

يجلس الأستاذ (محروس) ويحينا بكفه المفتوحة ثم يمسخ بها على صدره، ويطلب اليتسون.. لا.. ليست (الطبة الحصى) كما يفعل الآخرون.. يشرب في استمتاع وتلذذ. ولا ينسى أن يلقى علينا نظرة من حين لآخر مكرراً ذات التحية:

”د. محفوظ.. كيف الحال؟.. ومينا يكرمك“

”عم (عطية).. كيف حالك؟.. نحمد الله“

ثم تأتي اللحظة التي انحبست لها الأنفاس.. تبدأ أنامله تجري على الأوتار وتتصاعد أنغام تسلب لبك.. أنغام قاسمة من ذلك المنجم السحري الذي كان موتسارت وسيد درويش وعبد الوهاب وبيتهوفن وباخ يعرفون مكانه ويعملون فيه.. يبدأ بأغان معروفة لام كلثوم.. ثم يعرج على الحان لم نسمعها من قبل وأغان تنير ذهولنا.. هذا أروع شيء في العالم.. كانتني واحد من ملوك ألف ليلة وليلة الذين يشقون ثيابهم طرباً ويعشى عليهم كلما سمعوا أبياتاً معينة تتغنى بها جارية..

هذه اللحظات تدوم حتى الساعات الأولى من صباح الجمعة، فنعود لديارنا غير مصدقين.. بالطبع لم أكن أنام لأن صلاة الجمعة بعد ثلاث ساعات أو أربع، لذا كنت أنتظر حتى أصليها وأتناول الغداء ثم أنام.. والنوم كان بلا أحلام سوى صوت غناء الأستاذ (محروس)..

كانت له أغنية شهيرة قام فيها بثلاثين قصيدة:

"أضحي الثنائي بدلاً عن تلافينا.. وناب عن طيب لفيانا تجافينا"

التي كتبها (ابن زيدون) في فائقته القاسية (ولادة بنت المستكفي)، وكان صوت الأستاذ (محروس) ولحنه يسعوان بها إلى مرتبة تفوق السيمفونيات..

دائماً كنا نسأله:

"ما كل هذه الروعة؟.. ولماذا لا تقدم الإذاعة هذه المجوهرات للقاس؟"

كان يقول وهو يرشف الينسون إجابة ولحنه لا تتغير:

"ما فيش نصيب.."

هكذا أمضيت أعواماً ساحرة من حياتي، وإن كانت ظروفي لم تسمح لي بالانتظام في حضور (حفلات) ليلة الجمعة تلك.. لكنني عرفت يقيناً أن نشوة كهذه لن تبقى للأبد.. سوف يموت طبعاً وسوف يشتري أحدهم المقهى الجميل ليحوّله إلى محل للملابس الجاهزة.. ربما يبنون برجاً تجارياً مكانه.. طبيعة الحياة أن شيئاً بهذه الروعة لابد أن يزول..



وقد كان هذا اليوم أقرب مما تصورت..

لقد اتصل بي صديق مشترك ليخبرني أن الأستاذ محروس يلفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، وأن علي أن أزوره لأنه رغب في رؤيتي..

هكذا هرعت إلى المستشفى الحكومي حيث العناية المركزة، ووجدت فراشه بصعوبة وسط الأطفال الصارخين ومواقد الكيوسين وسمال الأطعمة والقطط السعורה.. كان على الفراش وحده وقد ثبتت إبرة وريدية في ساعده، وكان نائمًا.. فلما لمست ساعده في رفق فتح عينه ونظر لي.. تهلل وجهه برغم أنه لا يلبس نظارته السمكة تلك.. حاول النهوض فأرغمته على أن يبقى حيث هو.. قال لي:

.. "لقد تلف الكبد تمامًا.. لا تخف.. لا يوجد شيء معد في الموضوع، وإنما هي الخمر قاتلتها الله.. كنت أشرب بلا توقف في شبابي.. إنما أردت أن أراك لا أودعك، وكى استودعك سري الذي أخفيتك كل تلك الأعوام.."
إنه خرف الكبد طبعًا.. سوف يخبرني أنه أمي أو خالتي أو شيء من هذا القبيل..

قال لي:

.. "في شبابي كنت معجبًا بالأستاذ (محروس الشناوي) المطرب الكبير.. كنت ألاحقه في كل مكان وأحفظ كل أغنية غناها.. كان الرجل بلباً يفرد على المسارح وفي الإناعة.. وكان يلحن لنفسه على طريقة (عهد الوهاب) و(محمد فوزي)..."

قلت له في دهشة:

.. " (محروس الشناوي) .. هذا هو اسمك؟ "

.. " لا.. اسمي الحقيقي هو (محمد غانم) .. من (جنزور) "

.. " لكنني لم أسمع عن (محروس الشناوي) الآخر هذا قط.. تقول إنه كان شهيرًا "

.. " كان يشبهني في كل شيء.. لكن مصيره تغير.. أنا غيرته.. هذه قصة طويلة قد تصدقها أو لا تصدقها.. "

ثم بلل بلسانه شفته السفلى الجافة وراح يحكي:

- "كنت في ذلك الوقت - لعلمها الخمسينات - قد قرأت الكثير من كتب السحر.. وتعلمت الطريقة التي ارتحل بها إلى الماضي.. هذه أمور شديدة التعقيد وتحتاج إلى من كرس حياته بالكامل لها، لكنني كنت شبه مجنون بفكرة واحدة هي أن ارتحل لأرى بدايات الأستاذ (محروس الشناوي).. هكذا تمكنت بطريقة ما أن أدخل في غيبوبة، فتحت عيني منها لأجد أنني قد عدت للماضي.. إلى بداية القرن العشرين، وكنت البس ثياباً بلدية لا تدل على زمني كما إنني كنت أحمل قطعة ذهبية لأبيعتها إذا احتجت إلى مال. ورحت ألقب عن (محروس).. كنت أعرف يقيناً أنه يتواجد بكثرة في مقاهي باب الشعرية، هكذا وجيت أخيراً.. كان شاباً يشبهني إلى حد كبير وإن بدا عليه الخرق وعلامات الحيرة.. كان يصفي لكل المطربين، لكنه لا يعرف كيف يبدأ ولا ماذا يصنع.. كل ما كان يقدر عليه هو أن يقلد السكندري العبقري (سيد درويش)..."

"أصابني خيبة أمل وأنا أرى مني الأعلى هاجراً عن أن يقدم لي أي شيء.. إلا إنني تعرفت عليه ومع الوقت صرنا صديقين خاصة أن سننا متقاربة. كان قد جاء من قرية قرب (بنها) إلا أنه وجد نفسه ضائعاً في القاهرة.. وقد دعاني لأن أقيم معه في ذلك البيت المتواضع على السطح.

"لا أعرف كيف بدأ كل شيء، لكنني مع الوقت صرت أكلّمه عن الموسيقى والتلحين.. اقترحت عليه أن يلحن قصيدة (ابن زيدون) الشهيرة (اضحي القناشي.....).. وقد اقترحت عليه اللحن الذي أحفظه عن ظهر قلبه فجربه، وكان أن انشده في المقهى أمام أحد أساتذة الطرب فجن جنون هذا الأخير.. رحى من وقت لآخر أقدم له لحناً من ألبانه التي سيكتبها في المستقبل.. أدندن له اللحن وأعزفه على العود.. عن طريقي عرف لحن (يا غادة) ولحن (يا بوشامة على جبين القمر).. في الحقيقة كان منبهرًا لا يصدق.. شعر بأنني أرسلت له من السماء، ولم ير غضاضة في أن ينسب (ألباني) هذه لنفسه...!.. هكذا بدأت شهرته تتنامى وتتنامى.. سجلت له اسطوانات وذهب إلى الإذاعة..

"كانت مهمتي عجيبة.. أنا ألهمه بالحنان التي سيقولها فيما بعد.. على أن هذه الشهرة لعبت برأسه وجعلته يسرف في إتلاف صحته، بدأ يسخن الحشيش ويعاقب الخمر.. لقد فقد صوابه تمامًا.. حتى جاءت الليلة التي وجده ميتاً فيها بعد جرعة زائدة من الأفيون..

"بكيت على جثته بكاء شديداً، وقد شعرت بأن التاريخ تغير تماماً بسببي.. لن يكون هناك (محروس الشناوي) أستاذ الأجيال العظيم، ولن يقدم الحان الباهرة التي كنت أسمعها في شياي قبل عودتي لزمه.. ثم خطرت لي فكرة شيطانية.. لماذا لا أكون أنا (محروس الشناوي)؟.. إن التشابه بيننا قوي كما تعلم.. لو ليست مثله ووضعت نظارة سوداء فلن يلاحظ أحد شيئاً خاصة أن علاقته مقطوعة بأقاربه، وهكذا قمت بدفن جثته سرّاً بمعونة صديق لي، ثم خرجت إلى المجتمع وأنا أغني تراث الرجل.. من حين لآخر أقدم أغنية جديدة مما كنت أحفظه.. بعضها أغنيات كان سيقدمها لي الخمسينات قبل رحيلي مباشرة..

"لكن حظي كان يختلف عن حظ.. يبدو أنني انتقر إلى وهج النجاح، أو لعل إدمان الخمر قضى على فرصتي في الترقى.. هكذا رحلت أهوي باستمرار برغم أن الحاني كانت رائعة، وقد بعث بعض الأغاني بغمسة جننيات، برغم أنها صنعت مجد (محروس الشناوي) الحقيقي..

"صرت أغني في المقاهي مقابل أجر بخس أو مقابل المشارب.. وهي ذي حياتي قد انتهت من جديد، دون أن أترك شيئاً سوى بضعة الحان ليست لي، ودون أن أترك أسرة أو ولداً.."

ثم أوشك على البكاء، فرحت أهبط وأنا أنظر إلى اللون الأصفر المتزايد لي عيني..

عندما انصرفت قلت لنفسي إنها هلوسة لكنها هلوسة ممتعة.. كانت لي خالة تعاني فشل الكبد وكانت تحكي قصصاً مضطربة عجيبة، لكن قصة الرجل مترابطة.. خيالية نعم لكنها مترابطة..

بعد يومين كنت استعد للذهاب له في المستشفى، عندما عرفت أنه توفي أمس..



في الفترة التالية أجريت بعض التحريات عن طريق قريب لي في جنزور..

عرفت أن هناك فتى اسمه (محمد غانم) من جنزور اختفى بلا سابق إنذار ولا تفسير في خمسينات القرن العشرين.. هل يعني هذا شيئاً؟.. بالطبع لا..

لكن لو صحت القصة جدلاً لكانت قضية فلسفية محيرة.. من هو صاحب الألحان؟.. (محمد غانم) سمع الألحان فعاد للماضي ليلقنها لـ (محروس الشناوي) صاحبها الأصلي!.. (محروس الشناوي) الشاب لم يتعب في تأليف الألحان وإنما وجد من يلقنها على مسمعه تلقيناً.. فهل هو سارق؟.. سرق ماذا؟.. سرق الممانه الخاصة التي سيكتبها بعد عشرة أعوام!

تذكرت قصة الشيخ الذي ذهب إلى أهل الشاعر (أحمد شوقي) يوم مولده ليحذرهم من كارثة: "أفكم سوف يكبر ويكتب قصيدة تسيء للإسلام تبدأ بالبيت: رمضان ولي هاتها يا ساق! مشتاقه تسعى إلى مشتاق!". يكبر أحمد شوقي ويصير شاعراً كبيراً، هنا يخبره أهل البيت مازحين بنبوءة هذا الشيخ، يروق بيت الشعر لشوقي فيكمله بقصيدته الشهيرة.. السؤال هنا هو: هل الشيخ هو سبب كتابة شوقي لهذه القصيدة إذن؟.. أم أنها كانت نبوءة صادقة؟

متى تبدأ هذه الدائرة ومتى تنتهي؟.. من الذي تعب في صياغة الألحان؟.. (محروس الشناوي) الأصلي؟.. لكنه لا وجود له.. كلا الرجلين أخذ الألحان على الجاهز..

معضلة البيضة والدجاجة تتكرر من جديد بالحاح شديد، فلا حل لها سوى أن يكون الأستاذ محروس كان يهلوس فعلاً بسبب الغيبوبة الكبدية، هذا هو الحل الوحيد الذي يريحني ويمنع رأسي من الانفجار!



الباقية

في الثقافة الغربية نجد أن الحوريات كائنات جميلة دقيقة مجنحة
تملأ قصص الأطفال.. هناك حورية الاسنان التي تأخذ سنك وتترك
لك مالا بدلاً منها (عندنا واحدة منها في مصر). وهناك الحورية الأم
التي تعنى بك طيلة الوقت عندما تبكي وحدك في المطبخ لأنك لم تستطع
حضور حفل الأمير.. هنا تنهضين يا أنستي العزيزة لتكتشفي أنك
تحولت إلى سندريلا..

لكن الموضوع ليس بهذه السهولة، فلابد من التفرقة بين الحوريات
والانزام.. هذه الأخيرة كائنات مشومة تعيش تحت الأرض.. هناك
الجنبات الطائشة Pixies التي اشتهرت بالمرح والخرق.. هناك (الإلف
Blf) وهو أقرب لجنية لعوب، وأكثرها يعمل في خدمة السحرة.. إنك تجد
كثيراً من هذه (الإلفات) في فيلم (سيد الخواتم)...

لم يكن شيء من هذا في ذهني وأنا في تلك البقعة من شمال إيرلندا
عام 1977... إن شمال إيرلندا مقسم رسمياً إلى 26 إقليمًا، لكنه بالنسبة
للعامية مقسم إلى ستة فقط هي أنثريم وأرماج وداون وفيرماناج
ولندنديري وتايرون...

كنت أنا في (أنثريم).. سيارة معطلة على الطريق في الواحدة صباحاً
في بلد غريب.. أنت تعرف هذا الطراز من المآزق.. لماذا لا يخبرونك أن عليك
أن تضع جنازير حول عجلات السيارة عندما يغطي الثلج الطرقات..؟
لماذا خضعت المغامرة أصلاً..؟ لأفني كنت شاباً متهوراً أعتقد أن الموت هو
آخر شيء يمكن أن يحدث لي في حياتي!

هكذا مشيت في الظلام والبرد.. إنه لمآزق تادر.. سوف تتجمد
بالتأكيد لو ظللت في السيارة، وسوف تتجمد حتماً لو مشيت.. لكنك
تلمح أضواء القرية من بعيد، فتعرف أنك ستنجو هذه المرة.. إن
الإيرلنديين حادو الطباع لكنهم أكثر شهامة من البريطانيين أو هذا ما
أعرفه.. ربما هناك هاتف أو على أقل تقدير يمكنك قضاء الليلة وفي
الصباح سوف يصفو تفكيرك...

تسيت ان اقول لك ان الجليد كان ينهمر.. الأرض مكموة بالثلج..
وضع ممتاز لأن يجدوا جثتي المتجمدة في الصباح. ولولا ان هذه القرية
هنا لضعت..

بيوت القرية كلها من الطراز العتيق الجدير بالقصص.. النوافذ كلها
مضاءة بضوء يتفرق دليلاً على أن هناك نارا بالداخل..
دققت اول باب في رفق..

ثم قررت أن أنق في حزم.. وجدت جرساً فقرعته.. لا احد يفتح.
وبرغم هذا يتكلمون وراء الباب بتلك اللهجة الايرلندية التي تشعر بانها
لا تمت للإنجليزية بصلة.. إنهم هنا جميعاً...

على الأرجح يجلس في الداخل (باتريك) و(أوليفر) و(رايان) احفاد
(أوكونور) أو (أوبرايان) أو (أوجراي).. لا يوجد إيرلندي يحترم نفسه
يخلو اسمه من حرف O و mac..

لماذا لا تفتح يا اخ (أوليفر)؟..

إن الأمر يزداد خطورة.. بالفعل أنا لا أشعر بقدمي.. لو لم امت فمن
الوارد أن امضي حياتي بلا ساقين.. فذكروا ايها البلهاء أنني أت من بلاد
الشمس.. حيث ينهمر المطر عشر دقائق فتفرق الشوارع، ويكثر الناس
بالعباءات ويلبسون السراويل الصوفية ويتكلمون عن (البرد)..

أعرف هذا الطراز من القصص.. الفلاحون حول النار لا يفتحون
أبوابهم في هذه الليلة بالذات لأن الشياطين تغادر مساكنها أو الموتى
يخرجون من قبورهم.. ربما المذهب يجول حراً.. أي شيء..

لا أعرف بالضبط.. المهم أنهم لن يفتحوا.. وهذه أسوأ ليلة ممكنة كي
أكون هنا.. لا أخاف المسوخ.. أخاف التجمد.. ما نبي إذا كان حظي
النفس أو قلني هنا في ليلة كهذه؟

ولماذا تكون الليالي المخيفة باردة دائماً؟...

لكن لحظة.. هل تسمع هذا الصوت؟



هل الرياح تعوي؟.. لو لم تكن الرياح فهل هي الذئاب؟
لا.. هذا العويل الطوييييييل لا يمكن إلا أن يصدر من بشر.. وهذا هو
ما يخيف فيه..

رحت امسح الأشجار بعيني بحثاً عن مصدر الصوت.. هذا ليس
صعباً لأن الضوء ينعكس من الفواقد..
هناك جوار هذه الأشجار التي يكسوها الثلج كانت تلك الفتاة منكشمة
على نفسها تطلق هذا للعواء.. من هي؟.. هل قررت أن تفتخر أم هي
مجنونة؟

إنها جميلة بحق.. رقيقة من الطراز القابل للكسراياه.. شعر طويل اشقر
ينسدل على كتفها.. ثيابها خفيفة نوعاً مما يدل على أنها لن تعيش ساعة
أخرى.. حتى وهي حية أرى أن شفتيها زرقاوان ولونها تكون الورقة..
مشيت لأقف أمامها وأنا أعرف أن هذه بالضبط هي غلطتي الكبرى..
لي ليال كهذه لا يذهب الرء ليكلم فتاة وحيدة تقف وحدها في الثلج.. هذه
طبعا هي الجنية التي حبسوا أنفسهم في البيوت خوفاً منها، وأنا الأحمق
الوحيد الموجود في الخارج معها.. هذه هي نقاليد القصص المربعة.. لكن
ملاحظتها بددت الخوف من نفسي.. كانت هشة فعلاً خائفة فعلاً... لو لم
تكن هذه كائنًا بشرياً فمن أكون أنا؟..
"لماذا تهكين؟"

قالت بلهجة إيرلندية تصلح للتدريس:
"أنا (ماري أودونيل).. يعتقدون أنني ملعونة.. لهذا لا يسمحون لي
بالدخول وتركوني اتجمد.. أنا اتجمد فعلاً.."
"ولماذا اعتقدوا أنك ملعونة؟"

"لأنني.. لأنني... لأنني جميلة وشباب القرية يأبون الزواج لأن كلاً
منهم يحلم بي!"

فهمت.. جمالها جعل الناس تتشاهم منها.. لابد أنها ساحرة.. طبعا
بدأت هذه الإشاعة مجموعة من الفتيات العاقدات..

نظرت لي وسالت دمعة من عينها تجمدت قبل أن تبلغ للخد..

ثم أطلقت ذلك العويل الطويل الذي يمزق روحك..

هنا استبد بي مزيج من الغضب والشفقة والرعب.. هؤلاء الحمقى يتركون الخرافة تقتل هذه الفتاة الرقيقة.. سوف يتركونها حتى تتجمد وهي تعوي أنا.. وفي الصباح سيقولون إنها نالت جزاءها..
الفتاة تعاود الصراخ..

هكذا مشيت في حزم أهر قديمي وسط الثلوج حتى بلغت ذلك الكوخ..
دققت الباب مرارًا وصعحت :

“أنتم أيها الإلهاء!.. الفتاة ستموت من البرد!.. لو لم تلتحوا لأبلغت الشرطة!”

طلالت المحاولة والصراخ بلا جدوى..

فجأة سمعت من يتكلم بالآيرلندية من الداخل.. ثم انفتح الباب بصعوبة.. رأيت وجه امرأة عجوز ووجه شاب من الطراز الآيرلندي العصبي إياه.. لا بد أنه (باتريك) أو (بريان) فعلاً...

قال الشاب لأمه:

“إنه رجل يا أمه..”

إنه عبقرى كذلك....

هنا تنحنت المرأة عن الباب لتسمح لي بالدخول.. هناك كانت للدفاع مشتعلة حولها يجلس ستة أفراد ينظرون لي في شك.. جو كاثوليكي موح من الأيقونات والصلبان والصور الدينية..

راح الثلج يذوب عن كتفي وحاجبي.. نار.. نار!

لم أدر متى وضعت العجوز قدمي من الشاي الساخن في يدي.. فرحت اعتصره في نهم قبل أن أشربه.. وسرعان ما وجدت سلطانية مثينة بحساء ساخن كذلك فرحت أشربه دون أن أسأل عن محتواه.. لو كان حساء أحذية فلا مشكلة عندي...

قالت المرأة:

- "معذرة.. إن زوجي مريض لهذا لا نفتح للغريباء.."

تذكرت على الفور سبب مجيئي - يا لي من غبي!.. لذا قلت في لهفة:

- "(ماري أودونيل) البائسة تيكسي بالخارج!... يجب أن تدعوها تدخل.."

هنا تبادلنا المرأة نظرة مع الشاب.. اتجهت إلى النافذة وأزاحت الستار..
كان الثلج يكسوها من الخارج والرؤية مستحيلة، لذا أحضر الفتى شمعة
الصفها بالزجاج.. بعد قليل بدأت دائرة تتكون وسط الثلج.. وأمكنا أن
نرى ما يدور بالخارج..

لم يكن ما رأيناه محبباً..

كانت الفتاة (ماري) تلصق وجهها بالنافذة وقرنو إلينا في ثبات دون
أن ترمش عينها.. على شفتيها ابتسامة قاسية جمدت الدم في عروقي..
المتجمدون لا يبتسمون بهذه القسوة..

همست للعجوز وهي ترسم علامة الصليب:

- "إنها هي!"

ثم أعادت الستار وهتكت في الفتى:

- "أذهب لنرى أباك.."

جري الفتى وجريت معه.. لا أعرف السبب لكنني توقعت ما سوف
أراه..

غرفة نوم ضيقة.. غراش.. عليه رجل عجوز مدثر بالاعطية.. لكن عينيه
شاخصتان إلى المجهول.. لم أحتج إلى أن أتحمس نبض عنقه.. إنه ميت
جداً..

نظرت الفتى ونظر لي..

وعلى باب الغرفة رايت المرأة.. كانت تنظر لنا نظرة معذاتها (هل كان ما
توقعناه صحيحاً؟) ... قال الفتى بصوت مختنق:



..لقد توفي يا أماء.. لابد أن هذا حدث الآن..”

لقدت المرأة قبرتها على الوقوف وتهاوت قدماها..

قال الفتى وهو يساعد على النهوض:

..لقد سمعت البانشي Banshee تعول في الخلاء أمس ولم أرد أن

أصدق.. لكننا الآن رأيناها تطل من نافذتنا...!”

هنا فقط تذكرت...

(البانشي) تلك الجنية التي تجدها في أساطير الأيرلنديين منذ القرن

الثامن الميلادي حتى اليوم.. التي تعوي خارج البيت فيعرف سكانه أن

واحدًا من أفراد الأسرة سيموت...

(البانشي) لفظة من مقطعين (بان أي امرأة، وسيدهي أي جنية)...

هناك واحدة مثلها في اسكتلندا تدعى (بين نيجي).. (البانشي) تبدو كفتاة

ذات شعر طويل، تمشطه بمشط فضي لهذا لا ينصحوك في أيرلندا بأن

تلتقط أي مشط تجده على الأرض.. قد يكون مشطها..

قد يكون عواظها رقيقًا حزبيًا إذا كانت تحب أفراد الأسرة.. وقد يكون

مريبًا مخيفًا إذا كانت تكرههم..

هناك أسر معينة ارتبطت بالبانشي مثل أسرة (أودونيل) التي تجلس

البانشي الخاصة بها على صخرة تطل على البحر في (أنتريم).. وعندما

يتهدد الموت أحد أفراد أسرة (أونيل) يتردد عواء البانشي عبر غابات

(كويل أولفاه) وفي أرجاء قلعهم القديمة..

ما حدث لي ببساطة هو أنني جلست مع البانشي وتبادلنا الحديث..

وحاولت أن أسمع لها بالدخول..

لم تكن تعوي من البرد..

كانت تنذرهم بموت رب الأسرة...



همنس الموتى

لم أكن أعرف أن البروتستانت (جيمس ماتيسون) من المهتمين
بهذه الأمور.

أنت تذكر الرجل.. هلم من فضلك!.. لا تشعرني بأنني كنت أكلم نفسي
في كل هذه الأوراق!.. أنعش ذاكرتك قليلاً.. جمعية البحوث الروحانية
البريطانية وتلك الفترة الخصيبة من حياتي.. إن البعض يعتبر هذا المكان
تجمعاً للنصابين أو - في أفضل الأحوال - تجمعاً للحمقى، لكنني برغم كل
شيء وجدت في هذا المكان الكثير من الخبرات المسلية أو الجديرة بالتأمل.
لا شيء مثل البحث عن حقيقة ميتافيزيقية يساعدك في فهم نفسك...
(كارل يونج) تلميذ فرويد الشهير لم يفتنع لحظة بجلسات تحضير
الأرواح، لكنه افتنع بأهميتها.. إن كم المعلومات والأسرار الخبيثة في
ذواتنا التي يوفرها جلوس عدد من الأشخاص المتوترين في الظلام لكثرة
حقيقي للعالم النفسي.. عندما يتحرك الكوب فلربما تعتقد أنها الروح التي
تحركه. لكن (يونج) يرى أن لا وعينا هو الذي يفعل هذا كاشفاً عن كنوز
حقيقية تتوارى داخلنا منذ عصور سحيقة...

الخلاصة: سواء كنت تؤمن بالظواهر الميتافيزيقية أو لا تؤمن فهذا
عالم جدير بأن تعرف عنه كل شيء...

د. (جيمس ماتيسون) بقامته القصيرة وعصبته وعينيه النافذتين..
شعة انطباع طفولي عام تأخذه عن مظهره، دك من الضمكة التي يكشر
فيها عن أنيابه وتوشك أن تكون معسولة أحياناً، لكنها مجرد تعبير عصبي
على وجهه. لقد نجا من ذلك الحادث الذي كاد يودي بحياته والذي جعله
يمر بتجربة (دنو من الموت) كاملة.. من المهم أن نلاحظ أن الرجل لا يؤمن
بهذا الكلام لكنه يجربه.. لا يكف عن تجربته...

مع (ماتيسون) اجتزت تلك الباب في البناية العتيقة التي تعود لعام
1882.. الباب الذي اجتازه من قبل علماء كبار مثل الفيزيائي (كروكس)
وأدباء أكبر مثل (كوتان دويل) مؤلف (شيرلوك هولمز) وخبراء روحانيات
محترمون مثل (دوجلاس هيوم)... لست أنا المختص الوحيد هنا..

هل تذكرت الأمر الآن؟...

في العام الثاني لإقامتي في لندن توفيت زوجة د. (جيمس ماتيسون) الرقيقة (اليساباط)، لا تسألني من فضلك عن سبب كونها (اليساباط) وليست (إليزابيث) فالمرحومة أمي لم تكن بريطانية..

كان اكتئاب الرجل حقيقياً، ولفترة حسبت أننا فقدناه فعلاً.. لقد فقد روحه المرحه واهتمامه بأي شيء تقريباً..

مررت عليه أكثر من مرة في النادي البريطاني الذي ملتقي فيه. ناد استعماري جداً من الطراز الذي يجلس فيه بناء الإمبراطورية القنص ينعون ضياع مجد الماضي، ويشربون الشاي ويدخنون وينتقدون الشباب الرقيق طويل الشعر..

قال لي كبير السقا:

"أخشى أن أقول إن سيدي لم يعد يأتي هنا، لكن بوسع سيدي أن يترك رسالة لسيدي لو كان لي أن أقول هذا، وأمل أنني لم أتجاوز حدود اللياقة إن كان سيدي يرى ذلك.."

لر حولنا هذا الكلام للغة مفهومة لقلنا إن الرجل لم يعد يأتي..

عرفت فيما بعد أن الرجل يتردد على تلك المقبرة قرب (رستمستر). وبدأ لي هذا مخيفاً.. زوجته دفنت هناك ومعنى هذا أن حالته النفسية ليست على ما يرام..

ذهبت هناك صباحاً وبحثت عنه كثيراً حتى عرفت مكانه من لعاد ثمل، فمشيت بين شواهد القبور حتى وجدته.. كان يقف هناك وهو يحمل حقيبة كحفية ساعي البريد على كتفه لم أفهم ما فيها، وكان مطرق الرأس في تركيز شديد..

"د. (ماتيسون).. هل أنت بخير؟"

تنبه لوجودي فرغح حاجبيه وقال بلهجة عملية:



- بخير يا صاحبي الطيب .. بخير .. لما أنا لا ينبغي أن أكون كذلك؟

- تغير عاداتك .. اليس هذا غريباً؟

ونظرت إلى ياقته في دهشة .. إنه يثبت فيها (ميكروفون) صغيراً يخرج منه سلك ينزلق تحت معطفه ويتصل بالحقيبة كما هو واضح .. إذن هذا الذي في الحقيبة جهاز تسجيل .. ماذا يفعله بالضبط؟ .. يتجسس؟ .. لكن على من؟

فتح نظراتي وعرف ما أفكر فيه، فقال وهو يمس الميكروفون في الحقيبة:

- أنا مدين لك بتفسير .. هل تناولت إفطارك بعد؟

لا .. هناك في ذلك الطعم الصغير القريب جلسنا أمام طبقين من البيض المقلي والقهوة وشرائح (التوست) .. قال لي وهو يأكل بنهم حقيقي:

- هل سمعت عن الـ EVP؟؟

نظرت له في حياء فقال:

- قواهر الصوت الإلكترونية .. بعبارة أخرى هواية تسجيل الأصوات القادمة من العالم الآخر .. هذه الأصوات تكون أوضح ما يكون في المقابر أو حيث وصف الشهود رؤية أهباح من قبل ..

لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، وإن كنت أنت تعرفه بالتأكيد لأن فيلم (الضوضاء البيضاء) قد جعله موضوعاً يعرفه رجل الشارع، لكننا كنا قبل عرض الفيلم بثلاثين عاماً ..

شعر الرجل بأنه مدين لي بالمزيد من التفسير، فقال:

- بدأت القصة بالعالم الشهير إيمون الذي قال إننا يمكن أن نصلي للأصوات القادمة من العالم غير المادي .. كان هذا في عشرينات القرن العشرين، وبعدها بدأ الناس يهتمون فعلاً بالأمر، وظهرت أجهزة التسجيل فراحوا يسجلون الصمت .. أي أنهم يسجلون أصوات الغرفة التي لا توجد فيها أصوات .. إنهم يستعملون أي جهاز تسجيل .. المهم أن

يكون الجهاز سليماً عالي القدرة، وأن يستخدموا الميكروفون، وأن يكون شريط التسجيل بكراً لأن الشرائط المستعملة تحدث أصوات صخب غير مريحة.. بعد هذا تسمع التسجيل مع رفع الصوت بشدة، ومع وضع سماعتين على الأذنين.. يضيع الكثير من الوقت، لكنك في النهاية قد تظهر بجملة.. جملة واحدة يقولها الموتى.. هناك طريقة أخرى تقضي بأن تفتح جهاز الراديو على لا محطة على الإطلاق..

لم أود أن أبدو متشككاً لكن الموضوع بدا لي أقرب لكلام فارغ - وأنت توافقي - لذا قلت متعالمًا نفسي:

“هل هناك علماء يمارسون هذا النشاط؟”

قال بقم لوثه البيض:

“(فردريك يورجنسون) درس الموضوع بدقة، وفي أوائل الستينات كتب كتاباً مهماً اسمه (أصوات من الفضاء) .. هناك كذلك.. (كونستانتين روديف) السويدي.. هناك رئيس للرابطة الحالي وهو امرأة ثائرة تدعى (ساره استيب) يفتتها العلماء كثيراً..”

كتمت خواطري بالطبع حتى ذهبنا إلى شقته فطلب مني الجلوس.. كنا في منتصف النهار والشمس البخيلة تتسلل لتغمر غرفة مكتبه في شقته الأنيقة. أعد لنفسه شرايباً ثم أدار شريطاً على جهاز التسجيل وناولني سماعتي أذن وطلب أن أثبتهما..

“ما تسمع هو ملخص ساعات طويلة من الإصغاء والتسجيل.. يلاحظ حولت كل هذا إلى عشر دقائق..”

في رهبة وضعت السماعة على أذني..

يا للوضوء الاستاتيكية التي تذكرك بصوت الدوامات التي تسمعها عندما تضع قوقعة على أذنك.. هناك عالم كامل من الأصوات المبهمة والدوامات الصوتية.. ربما لو أغضضت عينك لسمعت أرواحاً معذبة تنن في سقر.. ربما سمعت ضحكات.. ولكن..

هناك بالفعل صوت.. بالتحديد صوت امرأة..

إنها تقول شيئاً.. لحظة.. لفكر أكثر...

".. سافلات.. كامو.. مي.. مي.. كامو.. مي... آآ.. سي يو... جم..
مي.."

هكذا ذرات الرمل الصوتي المتناثرة في العاصفة يمكن أن تحتشد
لترسم شكلاً ما، لكن الريح تذررها في ثوان فيغيب الشكل تماماً.. تسمع
كذلك ذلك الصوت يخفت ويعلو كأنه مضخة بعيدة..

("جي.. مي")

الشمس تغمر المكان لكني برغم هذا أشعر بأنها ليست كافية.. الشعر
يبتصب على ظهر ساعدي.. أية خبرة مرعبة هذه!!

قال لي باسمًا:

".....؟"

نزعنا السماعة عن أذني ونظرت في دهشة فكرر السؤال "ماذا
سمعت؟". قلت:

"صوت امرأة.. هذا كل شيء.."

"امرأة.. هذا ببساطة صوت (اليساباط).. العبارة التي تتردد هي
(تعال لي Come to me).. ثم (افتقدك Miss you).. ثم تناديني
باسمي.. جيمي.."

قلت في عصبية:

"هذا ليس واضحاً.."

"لا تكن طفلاً.. صوت زوجتي وقد سجلته وأنا أحوم بجهاز التسجيل
حول قبرها.. ألا يعني هذا شيئاً لك؟"

قلت له بصراحة إنني لا أفهم وليس لدي تفسير، لكن الأمر يبدو لي
عسير التصديق.. كان قاطعاً ولم يسمح لي بمناقشة أي شيء..

هكذا عندما فارقته بعد ساعات كان رأسي يعوج بالأفكار والهواجس، وقد قصدت عالمًا آخر أعرفه وهو كذلك طبيب باطني مرموق... د. (لانسبيرري) له عيادة صغيرة أنيقة في شارع (هارلي) المكان الوحيد الذي يمكن أن تجد فيه عيادات في لندن..

استقبلني الرجل ضئيل البنية عميق الصوت، وجلس يصفي في اهتمام لما أقول.. ابتسامته تتسع شيئًا فشيئًا كلما تكلمت.. في النهاية قال لي:

.. "هذا هو التفكير التواقي.. التفكير الذي يوحد بين مصدقي الخرافات في العالم كله. د. (ماتيسون) عالم منطقي معنّز، لكن فقدان زوجته من يقينه العلمي، وهو في مرحلة يمكنه أن يصدق فيها أي شيء.. لقد منحه هذا الصوت الأمل لكنه لمي الحقيقة بسمع ما يريد هو.. ما يتمنى أن يسمعه.. أن يعرف أن زوجته قريبة وتكلمه.. لكن ما يسجله الجهاز في الحقيقة هو خليط من الكهرباء الاستاتيكية مع صوت محرك جهاز التسجيل نفسه.. سمك من النقاط بعض الموجات من محطات الراديو المحلية.. في النهاية يصلنا هذا الخليط... هنا يمارس العقل لعبة اسمها (أبوفينيا Apophenia).. لا يفهم خليط الأصوات هذا فيحاول أن يجعله كلامًا ذا معنى.. يلتقط كلمة من هنا وكلمة من هناك ويلفق معنى لا وجود له.."

.. "مستحيل أن تفهمه بذلك.."

أشعل سيجارًا غليظًا وقال:

.. "فليصدق.. لو كان هذا يريحه فليفعل.. فقط أريد أن ألتصق من أنه لن يطلق الرصاص على رأسه ليلحق بها ما دام الصوت يقول له (تعال لي).. هذه الأمور تحدث.."

.. "حقًا لم أفكر في هذا.. احتمال مقلق.."

ثم مدت يدي في جيبتي وأخرجت الكنز الذي أخفيته طيلة هذا الوقت..

لقد سرقت الشريط من د. (ماتيسون) عندما خرج ليعد لنا بعض العصير.. ليس هذا سهلاً مع تلك الشروط العملاقة ذات البكر، لكنني كنت فعلاً بحاجة إلى رأي ثانٍ..

قال (لانصيري) باسماً:

"أي.. أي..! أنت سرقت الثعلب العجوز!... لن يمر هذا على خير.."

"أكمل أن أعيد الشريط قبل أن يلاحظ اختفائه.. أردت أن تسمعه.."

لف الشريط في موضعه ثم رفع الصوت إلى نهايته، فنبهته في تهذيب إلى أنه لا بد من استعمال سماعة الأذن.. هكذا ثبت سماعتين لأذنيه وراح يصفني..

رأيته يقطب ويبدو عليه الاهتمام.. أعاد الشريط عدة مرات..

ومن جديد ارتسم القلق على وجهه..

نزع السماعتين فقلت له:

"هل سمعت؟.. الأمر واضح.."

سألني في صرامة:

"أين كان يضع الميكروفون؟"

"يثبته إلى ياقة معطفه.. وضع غريب جداً.. كان يريد ألا يلتفت منظره

الناس لهذا ناري كل شيء قدر وسعه"

قال في خطورة:

"يجب أن نجده.. إن الثعلب العجوز في خطر داهم.."

"هل تعني أنه سيفقد نفسه فعلاً؟.. نداء زوجته سوف..."

كان قد وضع معطفه على كتفيه واتجه للباب، فالتفت لي في

بعشة ثم قال:

"من تحدث عن تلك الأصوات السخيفة هنا؟.. قلت لك إن (الايوفينيا)

تفسر كل شيء.. أنا أتحدث عن ذلك الصوت اللعين في الخلفية كأنه

مضخة تمثلي وتفرغ.. هذا الرجل مصاب بتوسع متكيس في الشريان



السياتي.. لقد وضع الميكروفون هناك فالتقط الصوت.. يجب أن ننقله
للمستشفى ولربما احتاج إلى جراحة أوعية عاجلة"
- "هل تعني؟"

- "أعني إنه مهدد بالموت في أية لحظة لو انفجر التكيس أو تكونت فيه
جلطة!!.. إن الـ EVP لم تساعد في الاتصال بالموتى، لكنها على الأقل قد
تساعده ألا يصير منهم!... هيا بنا!"

سن روينسون

يطلقون على هذه السن مصطلح (سن روبنسون) واعتقد أنهم على حق..

عرفت (ميدو) الصغير جيداً.. كل البناية عندما تعرف (ميدو) الصغير، وقد بدأ الكابوس منذ تعلم المشي..

لا توجد شقة في العمارة لم يبق ميدو بابها..

العريس الشاب (ممدوح) الذي يتمنى أن يجد نفسه وحيداً مع عروسه الجميلة (لياء) يفاجأ بدقة على الباب.. يفتحه ليجد (ميدو).. هو صبي في السابعة ينسكب شعره الأسود الفاحم على نصف وجهه، وفي عينيه نظرة شقية لطيفة.

..أنا ميدو..

فيبتسم العريس الشاب ويهم بفتح الباب، لولا أن (لياء) تهرع لتحتضن الصغير وتقبله وتقدم له الحلوى، ثم تقاده إلى الصالة ليجلس ويشاهد (سبوس تونز) معها.

..هل تسكن في هذا الطابق؟

..لا.. أسكن في الطابق الخامس..

(ممدوح) يغلي من الداخل ويجوب الشقة كنمر حبيس منتظراً رحيل الوغد الصغير، لكن (ميدو) يستلقي على الأريكة ويروح في سبات عميق..

كاد (ممدوح) يحمله من ساقيه ليلقي به خارج الشقة، لكنها صاحت في جزع:

..سوف توقظه!!

وحملت الشيطان الصغير إلى فراش الزوجية وترعت حذاءه ثم غطته بشرشف خفيف، وتركته لينام براحة..

كلما حاول (ممدوح) أن يقنعها بالتخلص من الوغد الصغير أو إلقائه من الشرفة، نظرت له محذرة وقالت:

..كنت رقيقاً حساساً أيام الخطبة.. فماذا هناك؟

ثلاث ساعات والوغد الصغير نائم، مما يدل على أنه بلا أهل، أو أن أهله سعداء للتخلص منه. في النهاية استيقظ من النوم فجلس في الصلاة يشاهد (سببس تونز) بينما هرعت (لمياء) تعد له بعض عصير الفاكهة. في النهاية وقد انتهت ممدوح تماماً وصار يفتح عينيه بمعجزة، أعلن ميدو أنه سيهود حتى لا تقلق عليه ماما.. ووعدهما بأن يزورهما كثيراً جداً..

..أنتما لطيفان.. لستما مثل الرجل الذي يسكن في الطابق السادس

يتكلم عني طبعاً..

في الصباح التالي يفتح العريس الشاب الباب على قادم مبكر، فيفاجأ بميدو يسأل عن مناطق (لمياء) ثم يدخل الشقة دون وجل، ويتجه في ثبات لغرفة النوم ليوقف العروس.. لكنها لم تندهش.. نهضت من على الوسادة وتنادت وقبلته وسألته بصوت ناعس:

..ماذا أحضرت لي اليوم؟

فيبحث في جيبه ويخرج قطعة لزجة مقرزة من البونبون يضعها على الوسادة حيث ينام (ممدوح).

..الله!.. شكراً..

وتنهال عليه تقبيلاً، ثم تنهض وتأخذ من يده إلى المطبخ..

في موعد الغداء يذق جرس الباب ويدخل (ميدو) وفي يده (صبعان من الكفتة وفي اليد الأخرى عود خشبي غرس فيه قطع من (الشيش طاووق)).

سأل عما يأكلان فأصرت (لمياء) على أن تلمس في يده بعض دبائيس الدجاج. وهكذا غادر الشقة راضياً وقد نسف غداء العروسين تماماً فلم يبق لديهما ما يأكلانه إلا السلاطة. وفوجئ (ممدوح) به يصعد الدرج قاصداً شقة أخرى!.. إذن هذا الشيطان الصغير يمر على شقق البناية ليجمع اللحم من كل شقة!.. هو لا يضيع وقته في جمع الفاكهة أو الأرض بل هدفه محدد وواضح.. النتيجة أن البناية كلها صارت تعج بالجياح!



بعد ساعتين عاد الصبي لينام على الأريكة ثلاث ساعات كاملة.

عندما بدأ يصرخ طالباً لعبة أصرت (لياء) على أن يأخذ (ممدوح) إلى السوبر ماركت أسفل البناية ليبتاع ما يريد لأنه حلاك صغير. هكذا نزل معه وهو يسب ويلعن في سره. وهناك شعر بأن الصبي لا يختار لعبة وإنما هو يقوم بتعبئة جوال بباطن في حقل.. إنه ينتقي ألعاباً لا يريد لها ولا تهمة في شيء فقط لتكون عنده. ولربما كي يحرم صاحب السوبر ماركت منها!

عندما قابلت (ممدوح) على السلم حبيته وهناته على الزواج. كان من الريف لهذا كان أول شيء فعله عندما سكن في بنايتنا هو أن خرج بالروب وراح يوزع الكعك على شقق البناية شقة شقة. وهو شيء لم نره منذ عام 1867. وهكذا كسب قلب كل السكان...

لهذا وقفت أثرثر معه كأننا متعارفان منذ عشرات السنين.. كان مرهقاً منتفخ العينين. وقد سألته عن السبب متوقفاً أن زوجته هي السبب لأنها شيطان رجيم مثلاً. لكنه قال لي:
"ميدو هذا!"

اذن (فميدو) قد زاره!... قلت له باسمًا:
"يجب أن تكون لطيفاً معه. كلنا كذلك حتى لو لم نتحمله"
"لقد صار في كل مكان.. في كل ركن.. لا أستطيع الخلاص منه.. إنني على شفا الانهيار العصبي"
قلت له ضاحكاً:

"ميدو في السابعة.. هذه هي السن التي يطلقون عليها في الغرب اسم (سن روبنسون).. أي إنه يعاني حالة ظمأ شديد للاستكشاف ومعرفة كل شيء جديد.. كأنه (روبينسون كروزو). لكنه سوف يمل بيتك سريعاً ويكف عن ملاحقتك.. أنت بالنسبة له مجرد لعبة جديدة.."

حك رأسه وشعره المنكوش المبعثر وقال:

.. "فلنعمل أو يكبر بسرعة أو يموت .. أعصابي لم تعد تتحمل!"

ثم تذكر شيئاً فسالني:

.. "من أهله؟"

.. "مهندس (السيد عوض) .. الأم معلمة تدعى إلهام .. يبدو أنك لم

تقابلهما منذ جئت البناية .. هما يقيمان في الطابق الخامس"

قال مفكراً:

.. "فعلاً لم أرها .. لم أسمع للطاقب الخامس أثناء توزيع الكعك .. هل

تري أن أخبرهما؟ .. ربما يتذكran أن في عروقتهما دمًا ويربيان ابنهما جيداً"

.. "لا أنصحك بهذا .. هما ليسا ودودين على الإطلاق واعتقد أنهما

موشكان على الإطلاق .."

فكر (ممدوح) في الأمر .. يا للمسكين! .. لهذا يحب (ميدو) أن يجوب

شقق البناية ولا يعود لشقته أبداً .. عندما يتسلجرو الأبوان يشعر الطفل

بأن أساس وجوده ذاته مهدد، ويبدأ الشعور بالقلق .. هل يتركانه؟ .. هل

ينفصلان ليجد نفسه جائعاً في الشارع؟

لهذا عندما عاد إلى الدار ووجد (ميدو) في غرفة النوم - بالحذاء

- يلعب على الفراش مع طائط (الحية) لم يحدد غضباً، بل إنه جرد على

دعوة الصغير للغداء، فقالت (الحية):

.. "واضح أنك رائق للبال اليوم .. ما هذا الكرم؟"

قال في غموض:

.. "سن روبنسون ..! هذا كل شيء .."

على مائدة الغداء راح يسأل الصغير عن أهله محاولاً انتزاع أية

معلومات، لكن الغلام لم يكن يجيب عن أسئلة من هذا النوع على الإطلاق

كأنه لا يسمعها ..

لم يكمل (ميدو) الطعام ونهض ليشغل جهاز التلفزيون، وراح يقلب القنوات بسرعة شديدة حتى صاح به (ممدوح) أن يتمهل قليلاً قبل أن... قبل أن يتلف التلفزيون كما حدث فعلاً.. فجأة صارت الشاشة مظلمة فيما عدا خطأ أزرق يتراقص.. نهض ممدوح في عصبية صارخاً فاجفل (ميدو) وترك جهاز (الريموت) يسقط على الأرض فيتهدشم..

كاد يحطم رأس الغلام لولا أن صاحبت (لياء) في حزم وهي تدفعه بيدها:

.. "ماذا هناك؟.. لم يحدث شيء.. سوف تصلحه لكن لا تفرغ الصفيح..
أنت قلت إنه سن روبسن"

.. "سن روبنسون.. لم أقل هذا لكن قاله جارنا (محفوظ).."

هنا أعلن (ميدو) أنه سيذهب لينام...

وتمنى (ممدوح) أن يكون قد أصاب الغلام بالذعر لدرجة ألا يعود.. قليلاً مشاكله النفسية في مكان آخر لكن وجوده لم يعد مرغوباً فيه أبداً..

قابلني على الدرج وهو يعمل جهاز التلفزيون ويلهث، وبالطبع لم تكن سني تسمح لي بمساعدته. سألته عما حدث فقال إنه (ميدو).. قلت له بأساً:

.. "حدث هذا عندي منذ عامين.. إن بين هذا الصبي وأجهزة التلفزيون علاقة عدا مريبة، ولو كنت متنبهاً لأنفرتك"

حمل التلفزيون مرهقاً إلى من يصلح هذه الأشياء، وعرف أن عليه أن يدفع مبلغاً فلكياً لإصلاحه.. هكذا لم يعد على استعداد للترحيب بهذا الصبي ثانية. وقد وجد ذات مرة قطعاً من الطوى في الصالة فأدرك أن (ميدو) كان هذا، من ثم انفجر في زوجته صارخاً.. لقد صار يتعامل مع (ميدو) ابن سبعة الأعوام كأنه عشيق يتسلل لداره كلما خرج..



على أنه استطاع أخيرًا أن يقابل مهندس (السيد عوض) هذا.. كان يقف مع البواب يثرثر عندما مر به رجل في القمصين يلبس نظارة سوداء مطرق الرأس، وحياهما بسرعة فقال البواب: "تفضل يا باشمهندس.." ثم أردف هذا منادياً الرجل:

"باشمهندس (سيد).. لم ألقاك حسب نور السلم بعد"

هكذا صارت القصة واضحة.. مهندس لم يره مدوح من قبل واسمه (سيد).. لا توجد احتمالات عديدة.. ركض خلفه مصافحاً وقل:

"هل أنت والد ميدو؟"

نظر له المهندس سريعاً وهز رأسه أن نعم ثم باهر بالانصراف.. تذكر (مدوح) ما قلته أنا عن أن الرجل ليس ودواً على الإطلاق.. لو شكنا له الشيطان الصغير فلسوف يتشاجر معه بالتأكيد فهو يقطر سماجة وخشونة.

لقد كف (ميدو) عن زيارة العريسين على كل حال.. لم يعد يستأجرا لهم الغداء، ولم يعد ينام على الأريكة.. لقد انتهى عصر الرعب..

كان هذا هو وقت زيارتي الأول لنا وزوجتي للعريسين، وقد رأيت أن أوجلهما نحو أسبوعين أو أكثر إلى أن يعتادا البناية. هكذا جلسنا في صالون دارهما والعروس تعد لنا بعض العصير ومعها زوجتي، بينما رحت أنهر أولادي الذين ينزون تخريب البيت..

قال لي مدوح ضاحكاً:

"لقد كف (ميدو) عن زيارتنا.."

قلت في جدية:

"لقد تنبأت بهذا.. لقد زار جارنا (عوني) منذ أربعة أعوام فكان يصيبه بالجنون من كثرة الزيارات، ثم كف عن ذلك ولم يره الرجل منذ ذلك الحين"

قال (مدوح) في غباء:

"لحظة.. أنت تكلمت عن جهاز التلفزيون الذي أنقله منذ عامين، وزيارة (عوني) التي تمت منذ أربعة أعوام.. كيف ظل الفلام في سن (روبينسون) منذ ذلك الحين؟"

نظرت له وفهمت.. إنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق.. هذه غلطتي وقد كنت أعتبره يعرف القصة كلها..

"(ميدو) في السابعة للأبد يا (معدوح)!"

"ماذا تعني؟"

ابتلعت ريقى ونظرت للباب كي أتأكد من أن زوجته لا تسمع وقالت:
"كما تعرف فإن سن روبينسون هذه تدفع الأطفال لتجربة الجديد والمخاطرة بحياتهم.. في يوم منذ ستة أعوام قرر (ميدو) أن يجرب الهبوط لأسفل.. فقط لم يفعل هذا بواسطة الدرج بل عن طريق ماسورة المياه في المسقط.. غائر نافذة الحمام وجرب.. لكن يده انزلقت وهوى ليتعطم في المسقط.. كان في سن السابعة"

شهق معدوح غير مصدق.. فقلت:

"نعم.. لكن الأسوأ هو أن الأم والأب ظلا يعتقدان أنه هائذ... عرفنا أنهما على حق عندما بدأ (ميدو) يوتاد شقق البناية.. يظهر في شقة أو أخرى ليثير هلع سكانها لكنه يلعب قليلاً ويرحل.. بعد فترة يكف عن زيارتها.. عرف السكان هنا وقرروا أن يصمتوا ولا يصابوا بالذعر.. عندما يأتي سكان جدد للبناية لا نخبرهم بالقصة لأننا نعرف أنه سيتروكهم بعد قليل فلا داعي لتدمير حياتهم... إن (ميدو) سيظل في سن روبينسون للأبد.."

"و.. والطعام الذي يجمعه من البيوت؟"

"لا يفعل به شيئاً.. لو صنعت للسطح لوجدته ملقى هناك"

ظل ينظر لي بنم مفتوح.. لا يعرف إن كان يصدق أم لا.. فقلت له:

"يمكنك أن تسأل الجيران أو البواب غداً.. حتى تلك اللحظة أنت محق

في الشك في كلامي"

في هذه اللحظة رفع (ممدوح) عينيه ببطء..

كان يبدو يقف على باب الصالون ويده في يد (لياء) وعلى وجهه
ضحكة طفولية..

كان ينظر له بعينين حلوتين ويقول:

“جئت كي أعب مع طانط (لياء) قليلاً.. هل توافق يا عمو
(ممدوح)؟”



مسكينة

عندما جاءت (سلمى) إلى دار عمها للحاج (صلاح البتلاوي) للمرة الأولى شعر بأنها هشة جدًا..

كانت في السابعة من عمرها.. لها شعر قصير ناعم كأنه سطح مصقول وعينان عسلتان تتغيران في ضوء الشمس لتصبيرا بلون الذهب.. عينان تحتلان ثلثي وجهها بلا مبالغة بينما احتشنت باقي ملامح الوجه في الثلث الباقي.. هناك أنف وفم وخدان كل هذا في رقعة صغيرة جدًا. ترتدي ثوبًا أزرق بسيطًا، وفي يدها نمية من القماش تحتضنها في عصبية. فما إن رآها حتى تذكر أخاه (مصطفى) رحمه الله وانفجر في البكاء..

احتضنها وراح ينهقه وهو يدفن أنفه في شعرها، فقالت له في رفق: "هيو... أنك ملوث بالمخاط وأنت تمسحه في شعري!"

تنبه فابتعد أنفه عنها، وقال لزوجته بلهجة امرأة:

"أعطيتها حمامًا ثم أعدي لها لقمة يا فوزية.. لا بد أن المسكينة على لحم بطنها.."

كانت (فوزية) تربيته الريفية، وكانت امرأة بأسلة فعلاً تعمل كل شيء في البيت، وقد تصرفت بطريقة عملية فلم تظهر تأثراً وأخذت الفتاة إلى الحمام..

جلس هو إلى مكتبه وحاول أن يتماسك..

يجب أن يبعد عن خياله صورة السيارة المسرعة التي تتقلب بركابها في التربة بعد منتصف الليل. يوم كامل مر والجميع يبيحث عن (مصطفى) وزوجته ولم يخطر ببال أحد أن السيارة استقرت هناك في قاع التربة ولم يتمكن أحد من فتح الزجاج.. فقط نزل الماء بعض الصبية ففوجئوا بالسيارة.. وعندما انتشلها الرجال لم يكن هناك ناع للبحث عن أحياء، لكنهم فوجئوا بالطفلة تبعل وتنفس..

"الأعمار بيد الله.."

قالها لنفسه وأشعل لفافة تبغ..

مر ابنه (عصام) أمام الباب فناداه.. (عصام) في التاسعة من العمر لكنه (ناصر) ونبيه ولسانه طلق جدير بأن يكون ابن تاجر، ويحضر جلسات المساومة مع أبيه ويجلس مع كل أصدقائه..

جاء (عصام) فقال له الحاج:

.. "اسمع.. (سلمى) ابنة أخي ستقيم معنا على طول.. أريد أن تكون رجلاً.. يجب أن تريحها وتشاركها اللعب ولا تضايقها أبداً.. أعرف أنك شيطان رحيم لكنني أطالبك بأن تتخلى عن عاداتك بعض الوقت"

عندما جاء النساء أخذ الطفلة معه إلى طبيب أطفال.. طبيب الأطفال فحصها بعناية ثم أرسلهما إلى طبيب أمراض قلب صديق له، وهذا فحصها جيداً وبدأ عليه القلق..

طلب من الطفلة أن تخرج من الغرفة، ثم نظر للحاج في توتر وقال: "هناك أكثر من عيب خلقي في القلب.. لا أعرف كيف ظلت حية كل هذا الوقت، بل ولا أعرف كيف تحملت موضوع فرق السيارة الذي نهكي عنه، لكن ما أعرفه هو أن عمرها محدود.. لن تعيش كثيراً.."

شعر الحاج بقلبه يتمزق.. هل هناك جراحة تصلح الأمر يا دكتور؟ كنا في السبعينات، وكانت جراحات القلب بدائية.. "لا شيء يمكن عمله.. فقط حاول أن تحافظ عليها من الجهد الزائد.."

عاد الحاج للدار مهموماً وأخبر زوجته همساً.. هذه الفتاة مريضة جداً.. مسكينة.. لن تعيش طويلاً..

سالت دمنة من عين السيدة قوية الشخصية، وأقسمت أن تمنى بالطفلة حتى آخر لحظة من حياتها..

في الوقت ذاته كان (عصام) يلعب معها في الصالة.. اختطف منها لعبتها القماشية فأطلقت صرخة عجيبة.. صرخة حيوانية عادة طويلة، وراحت تجري وراءه وهو يتملص منها..



خرج الحاج (عصام) من غرفة المكتب مذعوراً فأمسك بابنه وهوى على وجهه بصفعة قوية:

.. "لا تتعبها أيها الحيوان!..."

ثم انتزع الدمية من يده وناولها لها..

فيما بعد اختلى بابنه الباكي في غرفة المكتب وقال له همساً:

.. "الفتاة مريضة جداً.. مسكينة... لن تعيش طويلاً.. يجب أن

تحمليها"

في المدرسة عرفت المظلمات سرّاً أن (سلمى) مريضة جداً لهذا رحن يدلثنها. ورحن بضربن بعنف كل من يضايقها.. وأرغمن واحدة من الفتيات على القيام بالواجبات الصعبة التي تكلف بها..

توفي الحاج (حلاج) بعد أسبوعين، والسبب نوبة قلبية.. لقد سمع زوجته (فوزية) تعنف الفتاة لأنها لم تجذب السيفون بعد ما خرجت من الحمام، والفتاة تصرخ صرختها المميزة الطويلة الشبيهة بصفارة الإقنار..

خرج من مكتبه غاضباً وسب (فوزية) وسب أهلها وكاد يصفعها.. احتقن وجهه وراح يسعل.. ثم قال إنه يشعر بإتهاك شديد وإنه يرغب في كوب ماء...

عندما جلبت له كوب الماء كان يلفظ أنفاسه الأخيرة.. هؤلاء المحتضرون لا يشربون أبداً كوب الماء الذي طلبوه.. لكنه وجد لديه من القوة ما يسمح بأن يقول:

.. "اعتني بـ (سلمى)... إنها ابنتك.. لا تقسي عليها أبداً فهي مريضة جداً.."

ثم أغض عينيه مع صوت الصرخة التي انطلقت من زوجته..

هكذا نشأت (سلمى) في البيت الذي فقد عائلته.. وكانت الأم تنتظر

لها وتذكر: "هذه البائسة فقدت لباها وعمها.. بالإضافة لهذا هي مريضة جداً.. يا لها من تعسة!"

كبر (عصام) وتولى شئون تجارة أبيه. بينما واصلت (سلمى) الدراسة حتى تخرجت في كلية التجارة..

جاء اليوم الذي اختلت به أمه في غرفة مظلمة وقالت له ممسًا:

"هل فكرت في الزواج بعد؟"

"لا.."

"إذن لماذا لا تفكر في ابنة عمك (سلمى)؟.. إنها فتاة رقيقة مهيبة

ونحن نعرفها.. أنت تعرف بنات هذه الأيام اللاتي يرقصن في الديسكو ويشربن المخدرات طيلة اليوم.. كلهن يرقصن في الديسكو.. صدقني.. أنا أعرف هذا.. (سلمى) مريضة جدًا لكن لو أعطاه الله عمرًا لصارت زوجة صالحة، ولو توفاه الله لماتت قد قدمت لها معروفًا وسترتها.."

كان يشعر بأن (سلمى) بعثابة اخته لكن كلمات أمه جعلته يدرك أنها فتاة رقيقة جميلة فعلاً وأنها امرأة.

هكذا تزوجا.. ولم يلمسها إلا مرات قليلة جدًا ويحذر شديد لأنه كان يتوقع أن تلفظ أنفاسها الأخيرة في أية لحظة.. حرص كذلك على ألا تحمل لأنه لا يتصور هذا الكائن الهش على متضمنة الولادة..

توفي (عصام) بعد الزواج بسنة أشهر. والسبب هو مشادة مع بعض التجار حول سعر شحنة فاكهة جلبوها له وقد رفض أن يأخذها، من ثم احتدمت النفوس وتهور مجنون منهم ليهشم رأسه بسنجه ثقلها عشرون كيلوجرامًا..

وسط النساء المعزيات جلست (سلمى) تبيلة شامخة رقيقة كالحنم. إن الأسود يناسبها جدًا.. وقالت أكثر من امرأة إنها فتاة مسكينة.. مريضة جدًا ولن تعيش طويلًا... فقدت الزوج والاب والعم.. من لها يا ولدا؟

كان هذا عندما شعر د. (ماهر) باعتلاء مئنته وهو جالس في سرانق العزاء بين الرجال.. أشار له أخو (فوزية) إلى مكان الحمام فنهض ليدخل البيت ويمر وسط صف النساء الجالسات في الردهة.. لحظة واحدة وقعت فيها عيناه على عيني (سلمى) الواسعتين الفين لا تتركان موضعاً لقدم وسط وجهها..

عاد وهو ينمغم لنفسه: "مسكينة..."

د. (ماهر) زميل لي في ذات الكلية وهو إنسان محترم بالمعنى الحرفي للكلمة. بينه وأخي (فوزية) صداقة قديمة... إنه لم يتزوج بعد برغم أنه في الأربعين من العمر..

مكنا بعد شهر واحد كان جالسا في الصالون مع (فوزية) وأخيها.. كانت فوزية صامئة موشكة على البكاء في أية لحظة. عسير على المرأة أن تزوج أرملة ابنها، لكن أخاها كان ريفياً عملي التفكير، وقد قال أكثر من مرة:

"الحي ابقى من الميت.. ونحن في النهاية لن نطالبها بالألا تتزوج للأبد لعقراًم لذكرى المرحوم ابنتك.. هذا حرام.. ثم إن زوجك أوصاك بأن تعتبرها ابنتك.. ما كنت لتتركي ابنتك من دون زواج"

تم الزواج بعد انتهاء العام.. وقد أوصت (فوزية) العريس بأن يرفق بالفتاة فهي "مريضة جداً.. مسكينة... لن تعيش طويلاً.."

كان هو متفانياً كالفرسان.. وقد دعاني لحفل الزفاف الذي كان متواضعاً حياءً لأسباب لا تخفى على أحد.. بدت لي (سلمى) رقيقة جداً مرهقة كأنها شبح.. ورق قلبي عندما عرفت أنها مريضة جداً.. ومسكينة لن تعيش طويلاً...

قال ماهر:

"سوف أكون خادماً لها مدى الحياة.. لو اختارها الله جواره فلسوف تذهب بعد ما تكون عرفت مذاق السعادة"



توفي (ماهر) بعد ثلاثة أشهر في حادث سيارة مروع... وقد جاء الناس للعزاء وهم يعرفون قصة (سلمى) كاملة.. الملك الصغير الذي حرم الأب والعم والزوج الأول والثاني.. أضاف لهذا أنها مسكينة ولن تعيش طويلاً...

كنت غارقاً في تكريات هذه المأساة عندما فوجئت بزيارة منها في مكتبي..

راقية صاحبة حشة في ثوب أسود أثيق.. قالت لي وعيناها تفسلان روحي:

.. "المرحوم (ماهر) قال إنه يثق بك وإله لو كان له أخ فهو أنت.."

.. "هذا صحيح.. ولكن...؟"

.. "كان يقول إنه لم يحدث له شيء فانت قادر على إنهاء إجراءاته في الجامعة.. المستحقات المالية... أنا لا أفهم هذه الأمور"

قلت في حماس:

.. "طبعاً.. طبعاً.. سوف يأتيك كل ملهم إلى بيتك"

وانطلقت أنهي الإجراءات بسرعة للبرق وتشاجرت مع كل الموظفين تقريباً.. إنها مريضة جداً.. مسكينة... لن تعيش طويلاً...

بالمنااسبة.. كيف يكون شعور الرجل إذا تزوج اثنتين؟.. هذا حلال شرعاً لكننا نحرمة على أنفسنا بحكم العرف.. حرام والله..

كنت أعد المال الذي سأسلمه لها، عندما دق باب مكتبي فرفعت رأسي..

وجدت أخاً (فوزية) يقف على الباب.. إفتي أعرفه.. اسمه (فوزي) وهو موظف في الري، ويرغم السنين في القاهرة لم يتخلص من طابعه الريفي مع روح دعابة قوية، لكنه لم يبد على استعداد للمزاح الآن...

قال لي وهو يجفف عرقه:

.. عرفت أن (سلمى) جاءتك تطلب مساعدتها في الإجراءات.. هناك شيء معين لا يريحني بصدد (سلمى) هذه..”

قلت في حنان:

.. “هي مخلوقة تعسة الحظ.. مريضة جدًا.. مسكينة.. لن تعيش طويلاً...”

.. “هذا ما نقوله منذ عشرين سنة.. لنا أجريت بعض البحث، وعرفت شيئاً غريباً.. هل تعرف أنها ليست ابنة (مصطفى البنهاوي) رحمه الله؟.. حتى أخيه الحاج (صلاح) زوج أختي لم يعرف هذا..”
.. “مانا تعني؟”

.. “إنها لقيطة وجدها (مصطفى) رضيعة وقرر أن يتبناها من دون أية أوراق رسمية.. قام بتزوير شهادة ميلاد، وكان يعمل في السويس فكتب لأهله في القاهرة يخبرهم أن زوجته أنجبت.. أراد أن تعيش حياة طبيعية فلا يعايرها أحد بأنها لقيطة أبداً.. ورباها حتى صارت في السابعة عندما مات في ذلك الحادث.. لا يعرف هذا السر سوى خادمة عجوز كانت عندهم..”
.. “ومعنى هذا؟”

لتسعت عيناه وقال:

.. “معناه أن أحداً لا يعرف عنها أي شيء.. لا أحد يعرف من أين جاءت ولا من أبواها الحقيقيان.. والآن ألا تجد أن شيئاً غريباً يحيط بهذه الفتاة؟.. كل من رآها شعر بأنه مكلف برعايتها.. وكل من تعامل معها مات.. بينما هي.. هي...”

وصمت وأرتجف..

أرتجفت بدوري وأنا أفكر...

طلقة في سيارة تحت الماء لمدة يومين كاملين ولا يحدث لها شيء، ورغم أنها كانت مع جثتين..

كل من تعامل معها قد مات..
وبرغم هذا يرق لها الجميع لأنها مريضة جدًا.. مسكينة... لن تعيش
طويلاً...

يقولون هذا ويموتون....
إن (سلمى) لغز حقيقي... إنها قريبة جدًا من سر الموت..
ربما هي الموت ذاته في صورة إنسان..
ما أعرفه يقينًا هو أنني لا أريد أن أراها ثانية..!



عاشق اللوحات

في العام 1993 عرفت المستر (كارازيان) ..

منذ اللحظة الأولى ميزت أنني هذه (اليان) التي تدل على أنه أرمني ..
الأرمن كثيرون في مصر، وبعضهم صاروا مصريين كالمصريين
أنفسهم ، ويبدو أن في لغتهم شيئاً يجعلهم يتعلمون العربية بسهولة
وبلا أية لكنة غربية ..

عرفته عن طريق د. (عدنان) صديقي الذي كان من الإسكندرية، وقد
حدثني عن القصر الصغير الذي يسكن فيه ذلك الرجل الفريد ..

ذهبنا لزيارته في يوم ممطر من شهر ديسمبر، وقد أثار القصر
إعجابي منذ البداية بسبب ذوقه الفريد. فتحت لنا الباب فتاة لم أر جمالاً
كجمالها قط، وكان يتدلى قرط جميل من أذنها كأنه اللؤلؤ. دعتنا بإشارة
للدخول، وفي المهبور رأيت (بيانو) من طراز أثري جميل تعزف عليه لفتاة
أخرى ذات جمال نبيل شديد الرقي والأرستقراطية .. رأينا فابتسمت في
حياء وغادرت المكان بسرعة ، فقلت لنفسي إن أفضل مجاملة تقدمها لنا
هي أن تظل جالسة حيث هي ..

أما المستر (كارازيان) نفسه فقد جلسنا تنتظره في غرفة انتظار فاخرة
مزودة بتمائيل رائعة بالحجم الطبيعي للإنسان ..

ظهر من أعلى الدرج وهو يرتدي - كما توقعنا بالضبط - ذلك الروب
للقصير اللامع، ومن تحته قميص وربطة عنق ولبي يده سيجار غليظ .. لا
ينقصه إلا دلو به زجاجات شمبانيا وبعض التفاح وفتاة بريئة يفرر بها
كي يصير أحد أشوار الأفلام العربية القديمة ..

تأمل هذا الطوارف الرفيع والنظرة الناعسة في عينيه .. هذا رجل
عاش شبابه مع النساء وقد خدع منهن الكثيرات بلا شك .. الفتيات
اللاتي رأيناهن لم يتم اختيارهن بالصدفة إذن .. هن مختارات (على
الفرازة) كما يقولون ..

صافحني في تحفظ بينما ارتدى حديقاً في أحضان عدنان صديقه
الحميم، وكان يتحدث عربية ممتازة كما قلت لك ..

..مصر بلد جميل.. لا اذهب إلى أوروبا إلا وأنتقد كل شيء هنا..
خاصة هذا الوغد

قالتا وهو يلکم عدنان بين لوجي كتفيه مداعبًا فأطلق عدنان أنه مرحة
وقال لي:

..مستر (كارازيان) مولع جدًا بالتحف واللوحات..
..هذا واضح..

قلتها وأنا أتذكر الفتاة التي تعزف على البيانو.. هذه تحفة جديرة
بالاقتناء فعلاً...

أخذنا مستر (كارازيان) إلى باب في ركن الغرفة وقمحه.. ثم مشى
يتقدمنا وسط رواق طويل على جانبيه لوحات لا أعرف كيف أصفها
لك.. لقد رأيت اللوفر فشعوت بشعور مماثل، لكن اللوفر ملك الحكومة
الفرنسية وليس ملك شخص واحد مهما كان ثريًا..

هناك لوحات أصلية ترى عليها ضربات فرشاة الرسام.. عرفت أسلوب
(ديلاكروا) المميز، ورأيت وجوه (الجريكو) المعذبة المتطلعة إلى السماء،
ورأيت ضربات فرشاة (رينوار) الظامئة إلى النور، والضوء الذهبي
القادم من اليسار المميز لرمبرانت.. (ساسكيا) زوجة الفنان.. الأجساد
المكتنزة البدينة الرخوة المميزة لعالم (روبنز)..

توقفت ونظرت للثري الغفور في ذهول:
..هل هذه؟

ابتسم وقد توقع ما سأقول:
..نعم.. أصلية..

..مستحيل.. وإلا فأنت أغنى من قارون.. هذه اللوحات لا
تقدر بثمن..

قال ضاحكًا:



- يصرفني أن أجد في مصر من يفهم هذه الأمور.. عهدي بالمصريين أنهم لا يهتمون بالفن التشكيلي على الإطلاق.. لكم من ضيف مر بهذه الصالة فلم يهتم.. فقط يقول لي مجاملًا: لوحات جميلة.. ثم ينسى الأمر نهائياً..

كنت قد كونت وجهة نظر معقولة.. هذا الرجل يتعامل مع مافيا لوحات عالمية.. إنه لص آثار، وقد اختار أن يكون في مصر حيث يظل بعيداً عن عيون الشرطة لأن تواجده في أوروبا يعني التضياع أمره سريعاً.. الاحتمال الثاني هو أن هذه لوحات مزورة.. قام بتزويرها فنانون على قدر عال من الحرفية. يحتاج الأمر إلى ناقد فني أو أستاذ فنون جميلة، وربما احتاج إلى فحص بالكربون لمعرفة عمر هذه اللوحات الحقيقي.. كانت هناك لوحة تمثل مقعداً مزخرفاً شامخاً وسط ستائر حمراء. لوحة جميلة جداً لكن ثمة شيء ينقصها... كذلك كانت هناك لوحة لأريكة شرقية طويلة كان من الأجمل لو جلست عليها حسناء ماء، لكن الفنان فضل أن يتركها كما هي.. هناك لوحة عبارة عن مساحة سوداء لا شيء فيها.. لوحة غريبة جداً...

توقفت أمام هذه اللوحة وسألت مصتر (كارازيان) عنها فقال:
"هذه لوحة لغيرمير.. كان يبدأ بسطح أسود تماماً، لكنه لم يرسم أي شيء عليها حتى مات.. برغم هذا تظل قطعة فنية مهمة.. هل تعرف تمثال (العبد) لمايكل أنجلو الذي لم يستكملنه قط؟.. برغم هذا يعتبر قطعة فنية مهمة"

عندما غادرت وحدتان للكان كنت في حالة من الذهول..

سألني عن رأيي فقلت:

- "صاحبك لا يريحني البتة إلا كما يريحك التعامل مع أي لص.. لكن اللوحات تهمني وقد حركت شيئاً في روحي، وأعتقد أنني سأعود.."

بالفعل اعتدت كلما نزلت إلى الإسكندرية أن أتصل بالمستتر (كارازيان) طالباً أن يسمح لي بزيارة، ويبدو أن هذا كان يصره...

صرت أعرف لوحاته جيداً وأحفظ موضع كل لوحة منها تقريباً.. صحيح أن مواضعها تتغير وبعض اللوحات تختفي لتظهر لوحات أخرى . لكنني كنت أعرف بالتقريب أهم القطع.. هذا الركن فيه لوحات (هنري روسو) وهنا بعض الانطباعيين.. (بوشيه) هنا و(الما تاديما) هناك..

فقط كانت الحسان اللاتي يقابلنني بالصدفة عند (كارازيان) يتغيرن، ولم يتكلم عنهن قط كما لم أجسر على فتح الموضوع.. ربما أنكم عن تلك العسناء أو تلك فيتضح أنها ابنته أو زوجته..

استمرت صداقتي مع الرجل عامين، وكان أن قابلت د. (عدنان) في القاهرة ذات مرة، فرحنا نتحدث عن الإسكندرية..

سألته عن مستر (كارازيان) وكيف قابله لأول مرة فقال:

“قابله كما قابلته أنت.. صديق مشترك أخذني هناك وعرفني بالرجل..”

“لا بد أنه في مصر منذ زمن بعيد ما دام يجيد العربية بهذا الشكل..” قال ضاحكاً:

“لا.. قد جاء منذ ثلاثة أعوام وابتاع هذا القصر.. ليست صداقتنا قديمة إلى هذا الحد..”

كنت أفكر في كلامه بعمق...

عندما زرت قصر (كارازيان) في المرة التالية، فتحت لي الباب تلك الخادمة العسناء ذات القوط الشبيه باللؤلؤ.. ضحكت كماداتها وأشارت إلى الداخل.. هي لا تتكلم أبداً... قلت لها:

“إن ملامحك غير مصرية.. هل أنت قريبة مستر (كارازيان)؟”

نظرت لي واتسعت ضحكتها أكثر ولم تقل شيئاً.. لا تنوي أن تتكلم.. دخلت القصر وفي البهو القسيس كانت هناك فتاة رشيقة بلرعة الجمال

تؤدي بعض الحركات التي تذكرك بوقص البلييه أو تدريبات
الجمباز الإيقاعي..

رائتي فكنت عما تفعله، فدنوت منها وسألتها بجرأة :
- هل أنت قريبة مستر (كارازيان)؟

ابتسمت بدورها وقالت كلمة ما بالفرنسية وهرعت تبتعد...

كان الباب الذي يقود إلى متحف اللوحات مفتوحاً فدخلت.. قدرت أن
الرجل لن يتضابق من هذا التحرر الزائد من ناحيتي ما دمت دخلت هنا
عشرات المرات..

كانت هناك لوحة جديدة تظهر مشهداً صامتاً : هناك مسرح عليه
مشاعل مثبتة على خشبته وهي تعكس ضوءاً رهيباً، لكن المسرح خال
تماماً.. لا أذكر أن هناك لوحة عالية بهذا الشكل...

كانت هناك لوحة شهيرة جداً تمثل مدام (ريكامبييه) الرقيقة في وضع
بين الرقاد والجلوس على أريكة شرقية.. هذه لوحة جديدة على قدر
عظمي.. هل هي بريشة (ميفيد) أم (كونستابل)؟ بصراحة لا أذكر..
رفجاة تصلبت..

تلك الفجأة الرقيقة التي تعزف البواور والتي قابلتها في البهر أكثر من
مرة من قبل.. ألا تعمل بالضبط ملامح مدام ريكامبييه؟

هنا شعرت به يقف خلفي فأجفنت واستندت بسرعة. كان يقف هناك
بذات الروب اللامع الذي لم أراه إلا به، وكان ينظر للوحة في إعجاب غير
مبال بي، ثم قال:

- نعم.. هن رائعات.. الحلم الذي ظل يؤرقني هو أنني كنت أتمنى أن
أجدهن حولي بشحمن ولحمهن.. كما رآهن الرسام.. لم يرهن حقاً سوى
الرسام وقد نقل لنا تلك الرؤية..

- إلى هذا الحد؟



القصة واضحة.. هذا الثري المجنون بالفن يبحث في كل الأرض عن
جماليات يذكره بتلك اللوحات، فلا يختار للعمل عنده أو معه إلا من تشبه
ملاحها صاحبة اللوحة بقوة.. لن يتعب كثيراً على كل حال حتى يجد من
تشبه الموناليزا، لأن ملاحها تذكرني بما قاله الكاتب الساخر أحمد رجب
(سني الحاجة بالطرحة وسبرتاية القهوة)...

قضيت معه بعض الوقت ثم انصرفت وأنا مذهش من هذا المزاج الفني
المبالغ فيه..

جاءت الفرصة عندما قابلت أحد أصدقائي القدامى الذين بلغوا مرتبة
عالية في أحد الأجهزة الأمنية. كان برتبة لواء، وقد كنا نتحدث عن جرائم
سرقة الأعمال الفنية فخطر لي أن أسأله عن مصغر (كارازيان).. اسمه
بالكامل (ميخائيل كارازيان).. لا شك في أنه أرمي، وقد جاء إلى مصر
منذ خمسة أعوام تقريباً..

أخذ البيانات باهتمام ووجد بأن يتحقق من هذا الرجل جيداً.. وكنت
أعرف أنه سيفعل..

بعد أيام اتصل بي وقال ضاحكاً:

.. "معلوماتك خاطئة على طول الخط.. لم يدخل مصر رجل يدعى
(ميخائيل كارازيان).. القصر الذي تتحدث عنه بلا ساكن منذ
مشرة أعوام"

.. "بلا ساكن؟.. لقد زرت وزاره.. عدنان فلا تفل إتنا كنا نخرف..."

.. "لا تفل كذلك إتنا نحن من يخرف..."

وضعت السماعة في توتر، وسرعان ما كنت أتصل بـ (كارازيان)..
جاء صوته الهادئ المعتاد عبر الهاتف فقلت له إتني في أمس الحاجة
لزيرة معرض لوحاته مرة أخرى.. اليوم لو أمكن..

.. "كما تريد.. هل الساعة الخامسة عصرًا تناسبك؟"

.. "بالتأكيد..."

وسرعان ما كنت استقل القطار إلى الإسكندرية.. يجب أن أعرف وإلا قضيت تحبي من فرط اللغيط والحيرة. وعند الخامسة كنت على باب القصر أتق الجرس الأثري المعتاد. يفتح الباب لكنني لم أجد الخادمة ذات القرط الشبيه بالؤلؤ.

الباب انفتح من دون شخص يقف وراءه.. دخلت في توتر إلى اللوبي ثم الجهر..

القصر خال تمامًا.. ثمة جو عام يوحى بالقدم وبأن أحدًا لم يعن به منذ فترة.. نسيج عنكبوت وغبار.. في نهاية الممر ذلك الباب الذي يقود لعالم اللوحات. لا توجد إضاءة هنا..

وجدت شمعة مثبتة في طبق صغير فأشعلتها يعود ثقاب ومثيت انظر للوحات التي اعتدت رؤيتها.. ما زالت موجودة حيث هي.. وتوقفت أمام لوحة مألوفة.. راقصة الباليه لديها التي تمثلها وهي ترقص على المسرح.. أنا أعرف هذه الفتاة.. كانت تتدرب على الهمياز في البهو ذات مرة. لكنني رأيت اللوحة خالية من دونها من قبل ولم افطن للعلاقة... إذن لم تكن هناك فتاة تشبهها.. كانت هي.. لقد قادرت اللوحة لترقص أمام عيني!...

الأريكة الشرقية التي شعرت لدى رؤيتها بأن شيئًا ينقصها.. لقد تذكر عقلي الباطن أن هذه لوحة تمثل مدام (ريكاميه). لكن مدام (ريكاميه) لم تكن في اللوحة.. كانت جالسة تعزف البيانو!!

أما اللوحة التي كانت سوداء كلها فقد صارت مسكونة الآن.. الفتاة ذات القرطين المصنوعين من لؤلؤ.. لوحة (فيرمير) الشهيرة.. هذه الفتاة كانت تفتح لي الباب في كل مرة!

ثم توقفت أمام لوحة لم أنسها قط..

“كانت هناك لوحة تمثل مقعدًا مزخرفًا شامخًا وسط ستائر حمراء”

الآن أرى هذه اللوحة كاملة وأعرف لماذا بدت لي خالية. إن مستر
(كارازيان) لم يأت لمصر ولم يغادرها وعلى الأرجح لم يوجد قط إلا
في خيالنا...

اللوحة لفنان مجهول لي . تظهر رجلاً ذا ملامح مكشوفة يجلس على
مقعد شامخ كأنه العرش.. رجلاً اعتاد أن يخرج ليقابل ضيوفه ويقدم
نفسه باعتباره ثرياً يهوى الفن.. لكن النظرة في عينيه واضحة وتخبرك
لن رسحت هذه اللوحة بالضبط.. إنه الشيطان ذاته!

ستریپس

لأسباب تتعلق بهواية الكتب القديمة. أحفظ موضع واسم كل واحد من
باعة الكتب القديمة الذين تقابلهم على الرصيف في شارع النبي دانيال
بالإسكندرية..

الكتب والمجلات القديمة..! احتفظ أنت بمجلاتك المصفولة فاجرة
الطباعة زاهية الألوان، واترك لي الكتب المصفرة التي صارت أغلفتها
ممتية كأذان الكلاب، ولصفرت أوراقها، وفاحت منها رائحة غريبة هي
مزيج من رائحة الورق القديم والبخور ورائحة لا تعرف ما هي.. رائحة
الذكريات.. المجلات المطبوعة باللون الأخضر الزيتوني وإعلانات صابون
(فابلسي فاروق) و... و... للكتب التي كتب على هوائسها بقلم رصاص
مع توقيع صاحبها يحمل تاريخ 1930 أو 1940.. صور بطلات السينما
الهوليوديات بشفاهن القرمزية المصبوغة والطابع المقتعل المصطلح
عليه للجمال.. كل هذا عالم ساحر بالتأكيد..

أحفظ كل ركن في هذا الشارع، وقد ألهم الكثير من مالي بلا شك..
كنت أمشي فيه منذ شهر عندما توقفت أمام ذلك العجوز..

مسن هو مكتنز قليلاً، يلبس قميصاً غير مهندم افتخج جيبه لأنه يضع
فيه نظارتين معاً.. وكان يجلس على مقعد ويضع قدميه على مقعد مواجه
شأن من هم مصابون بالدوالي في السائقين، وقد اتخذ مجلسه تحت مظلة
وداح يطالع مجلة قديمة..

لم أره من قبل. وهنا كشف مشير في هد زاته، لذا توقفت جواره ورجعت
أتمسح المجلات التي نشرها على الرصيف وأنتلها بقوالب من الطوب.. معظمها
كانت مجلات مصورة غريبة قديمة.. لو كنت تعرف الطابع المميز لمجلات
(حكليات من السرناب) و(العرض الزاحف) التي كانت منتشرة في الولايات
المتحدة في الخمسينات، ثم تم وقفها، فأنت تستطيع تخيل هذه المجلات..

كان اسم المجلات التي يعرضها هو (الرجفات) وهو اسم مثير كما
تري. كما يدل على أنها مجلات مخصصة للرجب..

قلت له في تودد:



.. "أنا لم أرك هنا من قبل.. ولم أر هذه المجلات.."

نظر لي فاندركت أن له عيناً تظلها سحابة رمادية فلا ترى. وقال بصوت وقور يثم عن أصل طيب:

.. "كلانا موجود منذ القدم، لكن العين لا ترى إلا ما تريد أن تراه. اسمي (سليمان)"

رد معقول.. على كل حال انتقيت عشر مجلات مقتالية من تلك، وسألته عن ثمنها فطلب ثلاثة جنيهات.. هذا سعر لا يمكن تصديقه.. سعر اسطوري.. عدت أكرر السؤال فكرر الجواب..

هكذا أخذت غنيمتي وهرعت كي ألحق بالقطار الذي يقلني إلى القاهرة.. عندما رأت زوجتي المجلات هزت كتفها.. بينما ضحك ابني طويلاً وقال: .. "لم أعرف أنك تقرأ هذا الكلام يا بابا.. مجلة ميكى في هذه السن"

عند الناس تعتبر أية قصة ستريپس مجلة ميكى مهما كانت ومهما تعلقت أحداثها.. لا يعرفون أن هذا فن مستقل متميز، قد يبلغ درجة عالية جداً من التعقيد والبراعة.. هناك ستريپس لا يصلح إلا للبالغين.. ثم من قال إن حكايات ميكى ماوس تافهة في حد ذاتها؟..

كانت زوجتي تعد لي العشاء، ويبدو أنها مالت على الموقد أكثر من اللازم.. هنا سمعت صراخاً من المطبخ.. هرعت إلى هناك لأجدما تركض وقد أمسكت النار في صدر قميص نومها.. كان المشهد مروّعاً وقد فهمت لماذا وقف ابني يراقبه كأنه يراه على شاشة التلفزيون.. جريت إلى الحوض حيث كانت قد ملأت إناء بالماء، وسكبته مرة واحدة على صدر ثوبها.. أخيراً.. وقفت تبكي وترتجف بينما هي هارقة في الماء ومعظم موضع الحريق في الثوب قد تقضم، لكن لم تقاذ والحمد لله..

.. "أنت غير حذرة ككل النساء.. كلهن يعتقدن أن الحوادث لا تقع أبداً!"

قالت شيئاً عن تضحياتها في هذا البيت وكيف إنها كانت تحترق كي اتناول العشاء وبرغم هذا - فلنأخذني مصيبة - لا أشعر بها.. هكذا تحول العشاء إلى دخولها الفراش لقتام وبيضة قليتها لنفسى على الموقد مع كوب شاي..



فتحت جهاز التلفزيون فوجدته لا يعمل.. هذا يوم تحس تقليدي..
(واحد من تلك الأيام) كما يقول الغربيون..

هكذا رحت التهم البيضة وأنا أتصفح تلك المجلة.. بالفعل كان تصميمها
شبيهاً جداً بمجلات (حكايات من السرداب).. ذات القصص المربعة الفجة
وشديدة الإمتاع برغم هذا.. لا يدهشني أن كاتب الرعب الأمريكي (ستيفن
كننج) قال إنه كتب الرعب بسبب قراءاته وهو طفل لتلك المجلة..

ثمة قصة لا تبدو مربعة لهذا الحد.. رجل في منتصف العمر.. يبدو
أنه يعيش مع زوجته وأولاده.. في الكادر الأول يتشاجر مع زوجته..
في الكادر الثاني الزوجة في المطبخ.. ثمة صورة لها وهي تصرخ وقد
تمسكت النار بثوبها.. الزوج يطفى النار ويلومها.. هناك مشجرة.. يبدو
أن ابنه قد أثلث التلفزيون وأخفى ذلك.. في الكادر التالي الرجل يحاول
فتح الجهاز لكنه معطل.. البقية في العدد القادم..

من الممتع رؤية كم تتطابق حياتك مع الفن أحياناً..

هذا فنان من الخمسينات عاش في الولايات المتحدة، لكنه رسم مشاهد
شبيهة جداً بما حدث الليلة.. فلار مجلة أخرى..

مجموعة قصص مخيفة عن أشباح في القبو.. صندوق فيه جثة.. قصة
ذلك الرجل الممل الذي لا أفهم سبب جعله بطلاً.. يبدو أنه جرح نفسه أثناء
الحلاقة أمام المرأة صباخاً.. يهبر الشارع فتضربه سيارة بسرعة، يطير
في الهواء لكنه لا يموت.. إنه ما زال سليماً..

لا أفهم هذه القصص فعلاً.. هي ليست مربعة ولا مسلية.. لعل الأسوأ
قادم في الأعداد القادمة.. على كل حال كان وقت نومي قد حان فدخلت
قراشي وغفوت..

تذكرت في الصباح الباكر أنني سأذهب إلى الإسكندرية من جديد اليوم..
هناك تلك المحاضرات التي ألقيتها هناك.. وهذا يعني يوماً مرفقاً آخر..

حلقت ذقني في الحمام بسرعة.. يا للقاسية!.. منذ صارت لي لهية لم
أكف عن عادة جرح نفسي وأنا متعجل.. هكذا رحت أبطل الجرح باللوسيون

الحارق، وجففت وجهي عدة مرات حتى تلطخت المنشفة بالدم.. ارتديت ثيابي وهرعت إلى الشارع..

لا أعرف متى ولا كيف سمعت تلك الفرملة.. فقط كنت راقدًا على الأرض وكل عظمة في جسمي تؤلمني، وهناك حشد من الناس يجمعون بين الفضول والشفقة.. وهناك فتاة مذعورة تجثو جوارِي وهي تردد:

.. "أنت سليم.. هه؟.. أنت سليم!"

حركت أطرافي فكانت سليمة.. قلت في شك:

.. "أعتقد هذا.."

هتفت الفتاة في جمع الواقفين حولي بلهجة درامية:

.. "الحمد لله!.. أنتم سمعتم!"

قال أحد الواقفين متعجبًا:

.. "إنه جريح في ذقنه!"

قلت مرهقًا:

.. "لا.. هذا جرح من الحلاقة.. لم يحدث شيء.. أنا كنت متعجلًا شارد الذهن لا أكثر"

ساعدتني على النهوض وأركبتي السيارة.. إلى أين أنت ذاهب؟.. المحطة.. أنا ساوصلك.. أنت بخير.. هه؟.. اليس كذلك؟

وسرعان ما وجدت نفسي في القطار.. لا بد أنها كانت سعيدة جدًا بالخلاص مني..

كان يومي حافلًا وقد اضطررت إلى شراء مسكن من صيدلية كي أسكن ألام جسدي، على أنني عندما اقترب موعد الرحيل فكرت في أن أجتاز شارع النبي دانيال من جديد عساي أجد شيئًا جديدًا عند بائع أمس.. مشيت في الشارع في تودة.. أين هو؟.. أنا متأكد من أنه كان هنا..

دنوت من أحد الباعة الذين أعرفهم وسألته عن العجوز الذي قابلته أمس.. إنه (سليمان) موجود منذ القدم وله عين خالفة..

..لا يوجد أي بائع هنا اسمه (سليمان) يا دكتور.. ثم إنك تعرفنا جميعاً"

هذا غريب.. ربما تكون هلوسة لكن ليس إلى هذا الحد.. على كل حال أنا أعرف الأعيب الباعة.. ربما (سليمان) قد وضع مجلاته هنا من دون إذن (رئيس الباعة) أو البلطجي الذي يسيطر على المكان، لذا قرر الباعة عدم الاعتراف بوجوده أصلاً.. شيء يشبه مؤامرة الصمت (أومرتا) المعروفة لدى عصابات المافيا..

لحقت بالقطار وعدت إلى داري.. رحت أتناول الغداء في لهقة بسبب جوعي الشديد.. هنا دخل ابني الحجرة وقال لي في شيء من الحياء والشعور بالذنب:

..أريد أن أعترف لك لأن ضميري يؤنبني"

..ماذا هناك؟.. ربما يستر.."

..لقد تلف التلفزيون بصيبي.. وضعت كوب الماء فوقه فانسكب.. بعدها أصدر الجهاز فرقة وهمد تماماً.."

وبخته بشدة على هذه الحماقة وإن حميت الله على أن انفجاراً عاتياً لم يحدث.. غناً سوف آخذ الجهاز إلى من يصلحه وليكون خرابي بيتي قريباً.. ربما نحتاج لشراء جهاز آخر..

بعد قليل جاءت زوجتي تخبرني أنها ستخرج مع الأولاد قليلاً.. سوف تشتري لهم بعض اللوازم وسوف تعود في ساعة متأخرة.. لا بأس.. هكذا من دون تلفزيون رحت أقلب أعداد المجلة بإياها..
لنر بعض الأعداد الجديدة.. أي التي لم أقرأها أمس..

رأيت بطل القصة.. ذلك الكهل الممل.. جالساً.. إن زوجته تخبره أنها خارجة بالسيارة مع الأولاد للتسوق على الطريقة الأمريكية.. إنه وحيد في داره.. يكتشف أن حوض الماء ممتلئ والماء يفرق أرضية المطبخ فيزجر ويفلق الصنبور.. هناك كادر يظهر البيت من الخارج وقد بدأ الظلام يحل..



البيت يكبر كأن هناك من يقترب منه على طريقة لقطة (وجهة النظر) السينمائية.. يد ذات مخالب تضغط على الجرس.. البطل يفتح الباب وقد بدا عليه الذعر.. يتساءل: أهذا أنت؟.. هنا ترى وجه القادم.. إنه مسخ مخيف يقول وهو يضحك ليكشف عن أنياب كالمدى: نعم يا (جورج).. أنا هو الشيطان ذاته!... لقد جئت لأخذ روحك!

الكهل يحاول الفرار لكن الشيطان يقبض عليه بيد مخلبية.. يضربه بسكين عملاقة فيطير له أذناً ثم يضربه من جديد فيمزق أنفه.. الكهل يتوسل لكن الشيطان يولج مخالبه في عنقه.. الكهل يموت...

أزحت المجلة جانباً.. ما هذا السخف؟.. هل هذا الهراء هو ما يقدمونه للأطفال هناك؟.. ثم يتساءلون عن سبب كثرة السفاحين في بلادهم!... كل هذا الدم في صفحة واحدة وبريشة رسام بلوح.. حقاً.. هناك الكثير من التسلية هنا لكنها مجلة لا تناسب الأطفال البتة..

هذا الصوت!

نهضت إلى المطبخ وأثار غيظي أن زوجتي نسيت الصنبور مفتوحاً.. كان تدفق الماء أسرع من تصريفه من ثم سال ليغرق أرض المطبخ.. هذا موضوع مشاجرتنا القادمة إذن.. لن نجف شيئاً.. سوف أكتفي بقفل الصنبور لأن التجفيف مشكلتها هي..

سوف أعود إلى الأريكة وأقرأ مجلة رهيبة أخرى من مجلة (الوجفات) هذه..

جرس الباب يدق.. ليكن.. سوف أرى من هذا المصيف الذي يأتي من دون موعد.. ثم أعود لأطالع باقي المجلات..

إن أمسية شائقة تنتظرني بعد التخلص من هذا القادم.. أعرف هذا.. اشعر به..



القط الذي انحرف

تقول لي (نرمين) وهي ترتجف:

"أنت تعرف تلك اللحظة عندما يعتبرك الكل مجنوناً، بينما أنت على يقين بأنك لم تفقد ذلك الخيط بين الواقع والخيال بعد.."

تقول لي (نرمين) وهي تعتصر عينيها لتقلت القطرات المألحة الأولى:
"لا أعتقد أن هناك شخصاً آخر يمكن أن يصفي لي سواك يا د.
(محفوظ).."

تقول لي (نرمين) وهي تجفف أهدابها بمنديل ورقي:

"أبي لن يصدق حرفاً.. هذه هي المشكلة.. الآباء لا يفهمون أبداً.."
كنت أصغي لكلامها وأنا أفكر.. إن (نرمين) جارتني كما تعرف.. طالبة
جامعية هابطة الطباع مهذبة وليست من الطراز الهستيري.. عندما تقول
شيئاً فهي على الأرجح تعنيه..

قلت بلهجة قاطعة لا تسمح لها بالتراجع:

"سوف تزور د. (خليفة)، وسوف تأخذ رأيه... أعتقد أن رأيه سينهي
القصة"

هكذا تجدني أركب السيارة وجواري (نرمين) متوترة دامعة، وعلى
حجرها القفص الصغير الذي يبيع فيه (ميشو).. كان متوتراً مندهشاً من
هذه الرحلة بالسيارة، لكنها كانت تربت على القفص وعلى ذيله الذي يبرز
من حين لآخر، وتقول له كلمات مطمئنة..

هناك كان د. (خليفة) الطبيب البيطري صديقي بانتظارنا في مكتبه، وقد
تبادل معي حديثاً موحناً وتعرف على (نرمين) التي زعمت أنها قريبتني..
كان رجلاً في الخمسين له شارب عظيم يوحى بالثقة، الحق أنني أحترم
الأطباء البيطريين بشدة أكثر من سواهم.. العبقرى الذي يستطيع فهم آلام
مريض لا يتكلم ولا يكتب... ليس الغريب أنهم يخطئون التشخيص أحياناً
بل المذهل أنهم ينجحون في أغلب الأحوال..

لقد راح يتفحص القط الأشعث القابع في القفص، والقط كذلك راح يبادلُه نظرات متشككة.. هذه القطط الفارسية مملة لدرجة لا تصدق.. تذكرني بملوينير بدين جشع ثقيل الظل والحركة ولا يجيد سوى اللثام الطعام.. أفضل القطط البلدية الرشيدة خفيفة الظل متقلبة المزاج إياها..

راح يتفحص القط ثم فتح القفص ومد يده يعاينته...

في كسل راح القط يتظاهر بأنه مهتم.. راح يعاين تلك اليد بلا حماس باعتبار هذا واجباً لا مفر منه..

في النهاية أطلق د. (خليفة) القفص وقال له (نرمين):

.. "إنه في صحة ممتازة.. لا يمكن أن يكون مصاباً بالسعار بأي حال، برغم أن الطريقة المثلى هي أخذ عينة من المخ وفحصها مجهرياً، لكن للسعار علامات لا تخطئها العين.. دعك من أنه يأكل ويشرب ولا يتساقط اللعاب من شذقيه، ولم يتعرض لهجوم من حيوان مسعور"

قالت له في توتر:

.. "إذن لي أن أطمئن؟"

.. "أطمئني تمامًا.. يمكنك أن أخذ هذا القط ليلعب مع أطفالك"

ثم أضاف في سخرية:

.. "لكن الأمر ليس مصيرياً لهذا الحد.. يمكنك التخلص منه في أية

لحظة.. يمكنك اقتناء قط تطعنتين له أكثر.. لو أردت لاختفاء ووضعناه تحت المراقبة"

قالت في حزم:

.. "لا.. أنت لا تفهم.. هذا القط صديق عمري منذ عشر سنوات.. إن

التخلي عنه يشبه التخلي عن ابني"

ابتسم من جديد وقال:

.. "إذن لا داعي للتخلي عنه.. عودي للبيت وأطعميه وجبة دسمة.."

وهكذا انطلقت معها عائدين للسيارة.. كنت اشعر بأنني سخيـف..
لكن هذا كان أفضل حل وجدته لمشكلتها. لا أحد يتكلم بعد الطبيب
البيطري...

قلت لها ونحن في السيارة:
"هو هادئ الطباع تمامًا.. بل هو شبه معمل.. أين تلك الشراسة التي
تكلمت عنها؟"

"هي موجودة لكنها لا تظهر عندما تبحث عنها.."
"أعتقد أن المشكلة انتهت على كل حال.. إن القطة حساسة ولا يمكن
فهم مزاجها.. ربما تتوتر لأسباب لا نفهمها.. قديمًا اعتقد الناس أنها ترى
أشياء لا نراها نحن.. هذه فكرة مرعبة لو فكرت فيها.."

كنا قد وصلنا البيت فقالت لي وهي تترجل:
"شكرًا يا دكتور (محمود).. كنت أعرف أن بوصفي أن أثق بك"
ثم ابتعدت والفحص يتعلق في يدها.. والقط ينظر لي نظـرته الثقيلة
السمجة..

ومرت الأيام..
تقول لي (نرمين) وهي تشهق بعنف:
"الامر تجاوز الحد"

تقول لي (نرمين) وهي تخفي وجهها:
"إنه غريب الأطوار.."

تقول لي (نرمين) وهي تبكي من جديد:
"أعتقد أن (محمود سراج) يعرف السبب.."

هذه المرة ثعلبكت إصصابي بصعوبة. وقلت لها وأنا أعد من واحد
لعشرة:

"ألا ترين أنك تبالغين فعلاً؟.. كل هذا التغيير في حياتك بسبب قط؟.."



مهما كان ثميناً أو نفيساً فالتخلص منه أحد الخيارات الواردة.. إن الحياة
أعقد وأكثر كآبة من أن يفسدها قط

قالت في غضب:

“هل رأيت؟.. أنت كالجميع.. كالآخرين.. لا تفهم لماذا أليكى وأقلق من
أجل صديق قضيت معه عشر سنوات سعيدة.. ثم إن الأمر لم يعد يتعلق
به بل بفهم ما حدث.. إن (محمود سراج) يعرف.. أنا واثقة من هذا..”
كانت تتكلم وهي ترفع كفيها عن ساعدها.. هنا رأيت العين جرح طولي
يمكن وصفه.. لقد نهكت الأنسجة تماماً..

صحت في رعب:

“لا بد من أن يرى طبيب هذا الجرح..”
“ربما أفعل ذلك، لكنني لا أريد أن يشعر أبي بشيء.. سوف يتخلص
من القلق كخطوة أولى..”
تقول لي (نرمين):

• (محمود سراج) جارنا في البناية، وهو رجل في الخمسين يعيش
وحده.. لا أعرف عنه إلا أنه مهندس وأنه مهذب. من الطراز الذي يكره
أن يترك أثر أقدامه بأي شكل على غبار ممشي الحياة. تقابله على الدرج
فينظر للأرض ويواصل الصعود، لكن أبي كان يتبادل معه بعض الكلمات،
ويؤمن أبي أن هذا الطراز من الناس هو للعريس الأمثل لاية فتاة.. فقط لو
كان الأحق أصغر سنًا نوعًا.. كلما كان الرجل أحق صموًا استطائنا
تفيل الظل بدا لأبي مناسبًا أكثر..

(محمود سراج) يخرج ليلاً في جولات طويلة. أعرف هذا لأنني
- بصفتي من زبائن الأرق - أقف في شرفة غرفتي أحياناً فأراه يخرج
في أوقات غريبة جداً، وهو ما يثير الرغبة عندما تراه بمعطفه الطويل
الأسود يعشي وحده في الشوارع الخالي بعد الثالثة صباحاً.. يشق طريقه



وسط الضباب الذي بدأ يتكون وصوت تباح الكلاب الضالة من بعيد.. لا أعرف متى يعود لكنه لا يعود أبداً وأنا متيقظة..

كان هذا كل شيء أعرفه عنه، حتى حجز لنا أبي أسبوعين في مصيف (رأس البر) وأصدر قراره بأن تذهب جميعاً.. كان هذا أول عام لا تعمل فيه عندنا خادمة تعنى بالبيت أثناء سفرنا، وبالطبع لا توجد في مصر مهنة من يعنى بالحيوانات الأليفة كما في الخارج. لهذا صار من المهم أن نأخذ (ميشو) معنا إلى المصيف، لكن أبي كان قاطعاً.. لن يتحمل اصطحاب قط معه مع كل ما يسببه هذا من مشاكل.. إن اصطحاب قط قد يكون أكثر صعوبة من اصطحاب ثلاثة أطفال..

لئن ماذا أفعل؟.. بالطبع هذه الأمور سهلة على الكبار جميعاً: تخلصني منه.. لكنني كنت واضحة: لو أرادوا ترك القط فعليهم أن يتركوني كذلك، وبالطبع أطلق أبي سيلاً من الغضب على رأسي ثم جاءت الفكرة..

زار المهندس الوحيد في شقتي وتفاوض معه، ومن الغريب أن الرجل قبل العرض بسهولة وبشاشة، ثم جاء أبي يصحبني وأنا أحمل علبة من الورق المقوى فيها القط.. وأعطيته للمهندس مع تعليمات العناية به، وخاصة اتيكيت قصاء الحاجة الذي سيكون مشكلة على الأرجح، هناك كيس مليء بالسلك المجعد وكل ما عليه هو أن يسلق سمكة للقط يومياً.. ليس هذا سهلاً أو ساراً، لكن القطط كائنات حية وعليك أن تقبل هذه الحقيقة.. ليست مجرد صور لطيفة على بطاقات..

هكذا سافرنا.. لا أنكر أنني نسيت القط العزيز، لكنني تجرأت ذات مرة واتصلت بالمهندس لكنني لم أجده في الدار.. أصابني هذا بالغيظ لأنني أتوقع أن يظل جوار القط طيلة الأسبوعين..

أنا أكره المصايف.. شعور غريب ينتابني بأن الناس هناك تؤدي واجباً، وإلا فيم تصف هذه الوجوه التعمسة المليئة بالملل التي تجلس في الشمس الحارقة، مغطاة بالرمال تتمنى أن ينتهي هذا كله؟

لهذا مرت أيام المصيف ثقيلة مملة، حتى عدنا إلى القاهرة وقد صرنا
زفوجاً من قبائل الماساي.. أخيراً ذهبت مع أبي إلى شقة المهندس وكان
هناك لحسن الحظ.. رحب بنا ثم غاب دقيقة وعاد حاملاً الأخ (ميشو) في
صندوقه الورقي.. وقال:

“بصراحة لقد أحببته.. لكن الأمانة يجب أن ترد”

“هل ضايقتك؟”

“إنه مسالم كالملاتكة.. (ميشو) لن يضايق بابا أبداً”

عدت إلى البيت معتنة وقال أبي إن المهندس شخصية معتازة. ظلت
أعتقد هذا حتى جاء الليل.. لا أعرف كيف ولا لماذا صرحت من نومي لكنه
ذلك التأثير الغريب الذي تبعته فيك عيقتن تحملقان فيك وأنت نائم. كان
(ميشو) يقف على الوسادة يتأملني في عمق وثبات.. بصراحة نظرة
مفرزة فعلاً...

وفجأة رأيته يفرس أنيابه في ساعدي الذي كان على الوسادة.. أنت
تعرف مداعبات القطط وبعضها قد يكون ثقيلًا، لكن هذا الوغد كلن مصراً
واثقاً مما يفعله.. كان يريد انتزاع قطعة لحم.. وللمرة الأولى اضطرت
إلى أن أخضريه بالوسادة على رأسه ليترك ساعدي..

في اليوم التالي ركض ورائي في الصلاة وقد أرجع أذنيه للخلف
بتلك الطريقة الشيطانية التي تجيدها القطط.. كان يمشي على أظفاره
وقد قوس ظهره وصارت حركاته (بالورب).. هذا تأثير تمارسه القطط
كثيراً لكنه يزول فوراً لأنه نوع من الدعابة، لكن هذا القط بدا لي كشيطان
ذي فراء يطاردني في الصلاة.. بالفعل لم يتركني قبل أن ينشب أنيابه
في كاحلي...

الأسوأ أنه لم يعد يأكل السمك على الإطلاق، وقد قام بعد يومين
بعض أمني عضمة قوية جداً.. كانت هذه هي الفترة التي بدأ كابوس السعار

يطاردني فيها.. ماذا لو كان المرض اللعين أصابه؟.. ربما فر من الدار
وعضه حيوان آخر؟

صديقك البيطري نفى هذا الاحتمال تمامًا.. هنا يبقى احتمال آخر هو
أنه تعلم شيئًا ما عند (محمود سراج).. ما هو؟.. كيف يمكن أن تفسد
طباع قط مذهب؟

وحت أفكر في الأمر مليًا.. ثم قلت لها إن الحل الوحيد هو أن نسال
(محمود سراج) نفسه.. قد يكون لاحظ شيئًا غريبًا على القط
عندما كان هنده.

هكذا توجهت معها إلى تلك الشقة في البناية.. الشقة التي يعيش فيها
ذلك المهندس الوحيد منذ زمن. دققت الباب مرارًا فلم يرد أحد. كنت
أنصرف لولا أن لاحظت تلك الرائحة الكريهة الخارجة من وراء الباب.. لا
أحب أن أستعجل الشر لكن هذه القصة تبدو مألوفة..

كلام مع البواب.. قرهات متوالية على الباب.. محاولات مع الهاتف...
في النهاية الاتصال بقسم الشرطة. ومساعد الشرطة الملول المتعجل الذي
لا يرى داعيًا لكل هذا الهوس.. قال لي:

“لا يمكن أن نفتح البيت من دون إذن قانوني.. لكن يمكنك أن تفعل
على مسئوليتك”

هكذا طلبت من (نرمين) أن تبعد ورحلت والبواب نضرب الباب بكثفينا،
ثم أحضر أحدهم عتلة اغتصبنا بها القفل.. أمرت (نرمين) أن تبعد على
حين دخل مساعد الشرطة ومعه شرطيان إلى الشقة كريهة الرائحة....

هناك اسعنت.. هناك إناء يقوم أحدهم بخلط المونة فيه.. هناك (مخارة)
وكوز ماء جف ما فيه.. هناك جثة مهندس في الخمسين واقعة على الأرض
وقد بدا من الرائحة أنه توفي منذ يومين أو ثلاثة. مهندس أصيب بتوبة
قلبية من قرط الجهد وهو يعيد سد تلك الفجوة في الجدار... لا بد أن

ممارسة هذا العمل العضلي كانت عسيرة جدًا على رجل اعتاد الجلوس طيلة حياته.

الفجوة التي رأينا ما بها... لا بد أن القط هو الذي بدأ النبش والتنقيب هنا لمدة أسبوعين، وهو الذي وجد ما وجد، وتعلم أن يأكل أشياء غريبة جدًا غيرت من طباعه للأبد..

لقد حسبنا المهندس (محمود) نعزب.. الحقيقة التي عرفناها وعرفها القط قبلنا أنه أرمل!



أحلام أحلام

(أحلام) الآن تطم..

لا توقظوها من فضلكم..

من المصادفة العجيبة أن ينطبق اسم على صاحبه بهذه الدقة، لكنك يا (أحلام) كنت بالفعل تحلمين طيلة حياتك، ولئن كان العلماء يقولون إن المرء يقضي ستة أعوام من حياته في الحلم (بمعدل ساعتين كل ليلة)، فإن عمرك يتلخص في سلسلة من الأحلام تتخللها لحظات تكتفين فيها عينيك..

لسوف تغمضين عينيك، ولسوف لا تعانين أي أرق.. لست من الطراز الذي يتقلب في الفراش عدة ساعات، وبالتأكيد لا تعني كلمات (سهاد) و(مفروح الجفن) أي شيء في قاموسك.. بالنسبة لك كان النوم دومًا هو أن تضطفي على ذلك الزر في وعيك فتغيبين عن الوجود..

زوجك كان يقول إنك متبلدة الحص.. بالنسبة له يقترن ذكاء الروح بشيء من العذاب الداخلي.. يقترن بالأرق.. لكنك في الحقيقة كنت تشعرين أنك أذكى في العالم الآخر..

سوف تغيبين عن الوعي..

وفي هذه اللحظة تستكملين الحلم الذي بدأ منذ أيام.. ها هي ذي الحديقة.. البوابة الصفراء التي تصدر صريرًا مرعبًا.. في كل ليلة تضطرين إلى اجتيازها وسماع الصوت ذاته.. ثم ذلك المر بين الأشجار.. هذارا.. لقد مرت ألقى على قدمك منذ يومين فمن الخطأ أن يتكرر هذا ثانية..

ضمون أشجار تتدلى وتخمش وجهك.. حاولي ألا تجرحك.. أعرف أن هذا حلم، لكن من قال إن بكثريا التيتانوس لا تنسل للأحلام؟ ربما كانت الأحلام معقدة وربما لا..

هنا يأتي الجزء الخاص بالقط.. القط الأسود الذي يقف معترضًا الممر.. إنه ضخم شرس كما كان في كل ليلة سابقة.. أذناه منتفشتان ويطلق ذات الصوت الأقرب للضحيق.. مخيف هذا الصوت وينذر بالويل.. لكنك سوف تعبرين.. تعرفين أنك سوف تعبرين..

تبحثين حولك عن حجر.. شيء يصلح لذفه على هذا الشيء، ويبدو أنه يالف هذه الحركة جيدًا لأنه يفر على الفور.. هذا غريب لكنه يحدث كل ليلة..

سوف توصلين رحلتك في هذا المعمر الضيق..

هنا تجددين تلك الفتحة التي تغلقها نافذة عند مستوى الأرض.. نافذة
متسقة زجاجها مهشم. تغلقه خيوط العنكبوت..

سوف تنهين - وأنت لا تفهمين لماذا تقعين ذلك - لتواري النافذة...
آخر شيء تريدته هو أن تدفعي جسدي إلى الداخل.. لكك تقعين..

الآن هار جسدي في الفراش متوتراً.. إن جفنيك يختلجان، وأصوات
غريبة تخرج منك.. إنها مرحلة (حركة العين السريعة REM) التي يتم
فيها الحلم.. سألت عنها د. مصطفى الطبيب النفسي فقال لي إن العلم
لم يعرفها قبل عام 1952.. اكتشفها العالمان (كلايمان) و(أرسينسكي).
وزعموا أنها مهمة لنمو المخ ولتدعيم ذكريات اليوم.. هنا يرتفع ضغط دمك
وتزداد سرعة ضربات القلب.. هذا نوم لا علاقة له بالراحة.. إنه (النوم
المناقض).. وفترته تزداد طولاً كلما كان الكائن أضعف، لذا يكون أغلب
نوم الأطفال REM.. من المعتاد أن تفقد العضلات قوتها في هذه المرحلة،
ولا كرر النائم ذات ما يفعله أثناء الحلم..

لهذا تأتي بحركات كأنك تقعين حجراً على القط.. كأنك تحشرين
جسدي في الكرة الضيقة.. هذه هي اللحظات التي تثير نوم زوجك.. في هذه
اللحظات يشعر أنك كائن شيطاني وأنت موشكة على قضم حنجرته..
د. (مصطفى) قال لي إن أدوية الاكتئاب تُلغى فترة الـ REM هذه،
وهذا يساعد في شفاء الاكتئاب.. لكك تتعاطين هذه الأدوية وبرغم
هذا لم تتخلصي من تلك الفترة الصاخبة.. قال لي د. (مصطفى) كلاماً
مهماً عن مادة DMT التي يفرزها مخك الآن مسببة الحلم... إنها
في ذروتها أثناء الحلم وقبل الموت مباشرة.. فهل الموت ضرب آخر من
الحلم إذن؟..

أنت تنزلقين إلى الداخل.. إلى المكان الذي تهابينه والذي تعرفين
تفاصيله من كل الليالي السابقة..

ضوء المصباح صوف يقودك.. ضوء المصباح الخافت ورائحة
الكبروسين المتصاعدة منه.. والشموع الذابلة المحترقة..

سوف ترينهم هناك.. تلك المنضدة الطويلة العتيقة.. عليها المصباح
وعليها الشموع.. وهم هناك ينظرون لك منتظرين قدومك..
"تعالى يا أحلام.. لماذا تأخرت؟"

طبيقتك هناك على المنضدة.. طبعتك.. كريك..

سوف تعرفين وجوههم جميعاً.. جدتك.. صحيح أن عينيها لم تعودا
هناك.. صارتا مجرد قبعوتين، لكنك تعرفينها.. أبوك يجلس جوارها وقد
تساقط أنفه ولم يتخلص من الأكفان بعد.. سوف تلقين تعليقاً مهبياً عن
أن المرء لا يجلس على مائدة الطعام وهو ملقوف بالأكفان.. البواب العجوز
الذي تساقط نصف وجهه هنا..

كلهم هناك ومنتظرونك..

كلما حكيت هذا لأحد ارتجف ذعراً.. معنى الحلم أنهم ينتظرونك
لانتهاهم طعام الأبدية معهم.. هذا الحلم لا ينتظر تفسيرات..

لكن - الغريب - أنت تسحبين مقعداً وتجلسين وفي نهم تملئين طبقك..
ياكلون البازلاء.. لكنها بازلاء عديمة المذاق... هل لهذا معنى ما؟

في الهند قال أساتذة اليوجا إننا نحلم لسبعة أسباب.. الأحلام هي: ما
رأيناه.. ما سمعناه.. ما خبرناه.. ما نتمنى أن نجربه.. ما نحن مرغمون
على أن نجربه... ما تخيلناه.. ما هو طبيعة في جسمنا..

السبب الثامن في رأيي هو: أن نحلم بلا سبب يفسر ذلك..

تلتهمين للبازلاء.. وزوجك خائف.. لأنك تصدريين في نومك ذات
الاصوات التي يصدرها المرء إذا أكل البازلاء..

بعد الأكل ترفعين رأسك عارفة أن اللحظة المزهوية قد جاءت.. أنت
أكلت أكل الموشى فلا غرابة إن صرمت منهم..

ترقدين على المنضدة كما في الليالي السابقة.. ترقدين على بقايا
الطعام.. لا تريدان أن يحدث هذا.. ولا تعرفين ما الذي سيحدث.. فقط لا
تريدين، لكنك عاجزة عن الاعتراض أو قول أي شيء..

في لحظة كهذه كنت تقرين من عالم الكابوس.. كنت تصحين في الليالي
السابقة.. تصحين صارخة في الفراش والعرق يغمرك، فيجلب لك زوجك



كوب ماء ... لكفك لا تصحين هذه الليلة.. إلى متى سيدوم الكابوس؟ ...
لا تريدان الانتظار حتى تعرفي ما ينتظرك ...

إنهم يرفعون السكين.. دقات قلبك تتعالى وضغط دمك يرتفع.. هذه هي
اللحظة التي يموت فيها مريض القلب أثناء نومهم لأنهم عاشوا في الحظ
ما عاشه سواهم في الحقيقة.. في الصباح يجدونهم موتى ويطلقون عليهم
Dead in bed.. عبارة مسجوعة جميلة لكنها لن تقيك في شيء..
أحلام (أحلام) ليست ممتعة يوماً..

هذه هي اللحظة التي اقتحم فيها المكان حاملاً ذلك المشعل العملاق..
ينظرون لي بعيونهم الجوفاء أو المتأكلة في بلاهة.. لكنني أهوي بالمشعل
على الوجوه وعلى الأكفان..

من أين جئت أنا؟.. لا أعرف.. فقط أعرف أنني ظلت وقتاً طويلاً في
فراشي أحاول النوم.. لست مثلك يا أحلام.. لا بد من أن أتعاظم بعض
(هيدرات الكلورال) كي يذورني النعاس.. لا بد من كوب لبن.. لا بد من
موسيقا هادئة.. لا بد من كتاب عمل.. وعندما أغلق النور لا بد من أن أفكر
في شيء رتيب لكنه بهيج.. وبرغم هذا يظل الوسواس يطاردني: انتظار
قدوم النوم.. هذه هي الطريقة المثلى لطرد النوم.. لا بد من إفراغ مثانتي
بعض مرات.. لا بد من أدعية.. لا بد من سعال.. في النهاية لا أعرف كيف
صرت هناك ولا كيف حملت المشعل..

المهم أنني فعلت هذا ورحلت أحرق هؤلاء المحتشمين حولك.. أمس لم
أتمكن من إنقاذك لكنني لن أفضل اليوم..

زوجتي كذلك تكره هذا الجزء.. لأن عيني تبدآن الحركة السريعة..
تعرفها من اهتزاز جفني ومن كلامي أثناء النوم.. ومن الحركات التي
أطبع بها بالمشعل في وجوه الموتى..

سوف أنقذك يا أحلام..

سوف أجرك من يدك بينما ينزوي هؤلاء وهم يحترقون والدخان
والدهن السائل يسيل منهم.. سوف أجرك إلى ممر جانبي مليء بتسيج
العناكب.. سوف تفر الفئران فوق أقدامنا.. من فضلك!.. ليس الوقت



وقت الخوف الهستيرى الأنثوي المعتاد من القتران.. وطايط؟.. لا مشكلة.. لن تضرب وجهك أبدًا صدقيني.. إنها تملك أجهزة رادار متقنة..

سوف نغر من هنا..

لماذا أكلت طعام الموتى يا بلهاء؟.. لقد صرت لهم.. لو أخذوك مني فلن أتمكن من الاعتراض..

ما هذا؟.. لماذا لا تهجرين؟.. لم يعد لك قديمان؟.. نعم.. أرى هذا بوضوح.. لقد صرت أقصر قامة وصار ثوبك يجر على الأرض المخبرة.. كلا، قديماك موجودتان لكنهما التصمتا ليتحولا لقطعة من العجين.. هذا يحدث كثيرا في الحلم.. سوف أحملك.. لا مشكلة.. في الحلم أنت لست ثقيلة على الإطلاق.. إننا نعيش حلمًا لكننا نعرف أنه حلم.. هذه هي الأحلام المتجلية Lucid dreams التي هي أسهل أنواع الحلم على المفسرين...

لماذا يسيل المر علينا؟.. إنه ليس ممزًا.. إنه كائن حي لزج.. ونحن الآن في بلعومه.. قديماي تفوحان في المادة اللزجة بينما تسيل علينا من أعلى للبل قميصي.. تبلل وجهك..

في نهاية المر أرى الوجوه.. هذا وجه أبي.. هل تريته؟.. وجه عمتي.. إنهم يعدون لي مائدة أخرى لكنني لن ألتهم منها شيئًا حتى لو كنت أحب البازلاء..

اعرف أن المر ينهار وأننا لن نبلغ نهايته..

اعرف أن الأرض تنوب تحت قدمي..

لكن كل شيء لم ينته بعد.. لا تصرخي.. سنكون هنا غداً ولسوف نجد مخرجًا من هذه الورطة.. هل تريدان رأيي؟.. ربما ما كان علينا القوار عبر هذا المر.. لم يكن هناك مخرج سواء، لكنني الآن أسمع صوت الجرس الطويل يمزق اعصابي وأعرف أنه كان هناك مر آخر واسع يبدو أكثر أمنًا.. لماذا لم نره؟.. لأننا نحلم يا حمقاء..

نحلم..

تردودون!

وأنا الآن في الفراش أرتجف وأبحث عن زر الخشب اللعين.. فليخرس..
فليخرس..

لكن الرنين لم يصمت.. هذا إذن منيئك الخاص.. فلتخرسيه لأنه
يزعجني.. فلتنهضي وتعددي الطعام لزوجك.. موعد مدرسة الأطفال .
ضفري شعر (مي) و(مها) وابحثي عن حذاء (عمرو)..
لا تنسي أنكم ستزوروننا الليلة..

سوف تأتين لدارنا أنت وزوجك والأطفال.. وسوف أراك للمرة الأولى
في حياتي.. سوف تجلس في الصالون تثرثر ونشعر بنوع من الحميمية،
لكن نظراتك الملهولة لي لا تفارق وجهك.. كلما انشغلت عنك فوجئت بك
تتظنرين لي.. سوف يحكي الزوج عن الأحلام الغريبة التي تهاجم الدام..
ولسوف نضحك جميعاً..

سوف تدخلين المطبخ مع زوجتي تثرثران، بينما زوجك يسألني من
طبيب نفسي بارع لزوجته.. طبيب بصلي للمريض ولا يكتفي بكتابة
(البروزاك) ... فأعده بسؤال د. مصطفى..

سوف أنهض للحمام، وبينما أغادره أقبلك خارجة من
المطبخ فترتبكين..

سوف أسالك يا أحلام بصوت هامس:

"هل أنت جزء من حلمي أم أنا جزء من حلمك؟... وكيف يدخل
حلمي إلى حلمك في كل ليلة؟.. ماذا سوف تفعل الليلة عندما ينهار المر
تحت أقدامنا؟"

سوف يحمر وجهك، وتقولين في كبرياء:

".. (محفوظ)... أنا امرأة متزوجة ومحترمة.. من فضلك لا تدخل
أحلامي أبداً بعد اليوم.. هذا ليس من حقك حتى إن كنت تنفذ حياتي.. لو
رايتك هذه الليلة في حلمي فلسوف يتصرف زوجي معك.."

الحفل

لم أكن راغباً في ممارسة الاجتماعيات في هذا البلد، فقد كان انطباعي أن هذا يدخل في نطاق اللهو، وأنا لم أدفع ملياً في رحلتي هذه.. لقد تحملت الدولة نفقات سفري وعلي أن أكون أميناً مع كل ملهم وكل ثانية.. أعرف أن هذا تفكير مثالي جداً وأن الناس كفت عن التفكير بهذه الطريقة منذ عام 2500 قبل الميلاد، لكنني من الطراز العتيق ولا أستطيع أن أتغير..

لم يكن هذا حفل تعارف.. بل هو عيد ميلاد يقام في الرابع والعشرين من إبريل..

تلقيت البطاقة الرقيقة الأنيقة من الدكتورة (كرامب) فكان علي أن أجد عذراً للتملص، إلا أن من كانوا من مصر معي قالوا لي إن هذه قلة ذوق وإن علي أن أكون لطيفاً مهذباً.. الدكتورة (كرامب) أستاذة الأدب فائقة الشهرة، وتعتبر هي سبب قدومي لهذا البلد..

أولاً لم تكن عندي أية ثياب تصلح... كل ثيابي تبدو كأنني كنت في السوق منذ عشر دقائق قبل أن يجلبوني هنا.. وأنا أعرف أن الدكتورة (كرامب) أرسقراطية ولعلها من سلالة هذا الأمير أو هذا الملك من ملوك النمسا.. يكفي أن ترى خصلة الشعر الأبيض في مقدمة رأسها لترتجف..

تطوع أحد الأخوة المصريين بأن يستاجر لي بذلة سهرة أنيقة.. لا أعرف ما هو الفراك لكنه غالباً هو هذا الشيء.. من المحقوم في القصص أن يرتدي الرجال للفراك وأن تكشف للنسوة عن زهورهن في الحفلات.. ثانياً: ماذا عن الهدية؟.. لن أذهب لحفل عيد الميلاد لأقدم لهذه الدكتورة الأرسقراطية علية من الجاتوه لكن المصريين قالوا إن علي أن أقدم لها هدية رمزية ذات طابع فرعوني.. هذا سوف يسعدنا أكثر من قلادة ماسية.. أعطاني أحدهم مفتاح حياة بروتزيًا اشتراه يوماً ما من (خان الخليلي) وهو يفي بالفرض وأكثر.. هكذا دعوت للفراغة الذين يعطوننا هبة في أي مكان في العالم..

توجهت إلى الحفل كما قيل لي في تلك الليلة الليلية..

سوف أريكم من تفاصيل الحفل ذاته.. حفل فاخر يقام في حديقة مع إضاءة ليلية.. كشافات.. حمام سباحة.. رقص.. منضدة طويلة عليها

أصناف الطعام والكوكيتيل.. تذكر حفل الزفاف هذا أو ذلك الذي حضرته لقريبك الثري، وأشعرك بالتضاؤل.. يمكنك الآن أن تتصور الحفل الذي كنت فيه، مع ملاحظة أن قريبك الثري ليس ثرياً ولا أرسقراطياً على الإطلاق إن أقورن بهذا الجو..

موسيقى شتراوس تسمعها للمرة الأولى في الجو الذي كتبت من أجله خصيصاً... لا أعرف شكل شتراوس لكنني لن أندعش لو كان هو الذي يقود الفرقة الآن..

أما عن د. كرامب نفسها فكانت تمضي هنا وهناك تحيي هذا وذاك.. هزت رأسها لي وألقت على رأسي الكثير من حروف الشين والخاء.. هنأتها على (الرايخشتاج).. لا.. بل على (الجيپورتستاج).. أخطأ بين الكلمتين والفارق بينهما مروع.. وقدمت لها مفتاح الحياة فهشت وبشت.. ثم تركتني لتواصل المجاملات..

هكذا شعرت بما يشعر به الموظف المصري عندما يوقع في دفتر الحضور والانصراف ويصير على استعداد تام للقرصنة..

كان هذا عندما وجدت تلك العجوز.. امرأة عجوز جداً لم أر أسن منها في حياتي، وقد أندعشت لأنها هنا ولم تنم بعد.. كانت ترتدي ثوب سهرة أحمر أنيقاً جديراً بملكة جمال، وتقف جوار مائدة الكوكيتيل نحاول بعينين لا تريان أن تقتنص شيئاً..

دتوت منها وعرضت عليها بالمائيتي العرجاء أن أساعدها.. شكرتني وطلبت أن أناولها زجاجة الروم.. الزجاجة التي استقرت وسط عشرات الزجاجات الأخرى في بار هائل يتوسط المائدة.. وقالت الحيزبون:

“أفضل الروم لأن محتواه من الكحول عال.. الشمبانيا للأطفال!”

أصابني الذهول.. ناولتها ما تريد وتراجعت بينما هي تصوب الزجاجة بيد ترتجف إلى كأس تحملها.. ما زالت هذه المرأة ترغب في بعض الانحراف برغم أنها جثة تتحرك بالزفير.. ما أغرب الإنسان..

قالت وهي تحاول التصويب:

“لقد انتهى كبدي تماماً.. يقول الأطباء إنه صار كتلة من الليف.. لهذا

لم يعد المزيد من الروم قابلاً لإينائي..!”

رائتي أحرق فيها فأردفت:

.. أنت تفعل مثل ابني.. جئت معه هنا وأعطيتك ألف وعد بالآأس
الخمر، لكنه الآن منهمك في الرقص مع فتاة إلزاسية حسناء.. لن يعرف
أبدًا ما لم تخبره أنت”

وانفجرت في الضحك كاشفة عن أسنان جديدة بالساحرات.. أعني
فجوات أسنان طبعًا..

هكذا وقفت أراقبها بعض الوقت، ثم تركتها حيث هي واتجهت إلى ذلك
الممر الذي يقود إلى الخارج.. سوف أسترده معطفي وأعود للبيت الذي
أقيم فيه مع صديق مصري، لأنهم يقوم هادئًا حتى الصباح.. لقد قمت
كما قلت لك بالتوقيع في كشف الحضور!

مشيت في الممر، هنا وقعت عيني على ثوب سهرة أحمر يبدو مميزًا..
من الغريب أن يوجد ثوبان من ذات النوع في حقل واحد.. لكن لربما
كان الجميع يستاجر ثيابه من ذات المتعهد..

كان ظهر صاحبة الثوب لي.. ربما كانت أجمل من صاحبتنا هذه..
بالفعل استدارت و.. لا.. إنها هي!.. هي ذات العجوز التي كانت تقف
جوار المائدة تشرب الروم!.. تتنظر لي بعينين لا تريان تقريبًا ثم ترفع
كأسًا إلى شفيتها بيد توترتجف وترشفها..

كيف استطاعت هذه العجوز بطيئة الحركة أن تسبقني إلى هنا؟.. أنا
مسن لكن ليس مثلها.. ثم إن الممر ضيق.. لن يمر اثنان فيه من دون أن
يوبا بعضهما..

لا بد أن هناك طريقة أسرع للوصول إلى هنا من الطريق الذي اتخذته..
على كل حال ليس من شأني أن أعرف كيف جاء كل واحد إلى المكان
الذي هو فيه.. هكذا تهيأت للاتجاه إلى الوصيفة التي تحتفظ بالمعاطف،
لكن استوقفتني منظر مصل.. هناك رجل مسن يقف في وضع رشيق غارداً
نراعه وبالذراع الأخرى يبدو كأنه يطوق خصر امرأة هواثية لا وجود
لها.. على صوت الموسيقى القادمة من بعيد يرقص.. يرقص برشاقة
وجمالي لا شك فيهما.. لو كان أصغر سنًا لكان أحد فناني البانتومايم
المعهورين في أوروبا كلها..



وقفت أراقبه، ولاحظت أن عبداً من الواقفين التقوا حوله وهم يصاحبون
حركاته بالتصفيق والضحك... كان يرقص ويرقص... ثم توقف لاهثاً..
بحث بين الوجوه فالتقت عيناه بي..

قال لي وهو يتأبط ذراعي:

.. هل أنت عربي؟.. أعرف هذا النمط من الوجوه.. عربي أو باكستاني..
لكن لا.. شعرك خشن.. لا يوجد باكستاني شعره خشن أبداً.. أنت عربي..
ما اسمك؟

.. محفوظ.. أنا مصري..

.. أنا كنت عنديكم في العلمين مع (روميل) منذ.. منذ أكثر من نصف
قرن.. هل (مونتجمري) العجوز ما زال حياً؟

.. أنت أدرى مني بهذا.. لكنه مات على كل حال..

.. الكل يموت.. لقد اختلطت الأمور.. لم أعد أعرف من الحي و من
الذي مات..

عرفت أنه في مرحلة خرف الشيخوخة حيث لم يعد يذكر أي شيء
على الإطلاق.. لكنه اقتادني هائلاً إلى الحقل، ثم قوارى بين الراقصين..
استدرت للناحية الأخرى فوجدته!..

ما هذا؟.. كيف عاد؟.. ومتى؟..

كان يمشي وحده وهو يأتي بحركات راقصة ويحك عنقه الذي اعتلا
بالنمش والبقع.. رأيت يقترب من تلك العجوز السكرية ذات الثوب الأحمر،
فوقف معها يثرثران..

وقفت أراقب المشهد في حيرة بضع دقائق..

ثم استدرت لأراقب الراقصين، فرأيت العجوز السكرية ترقص مع
هذا الجندي السابق!.. ما الذي يجري هنا؟.. أنا لا أشرب الخمر لكن هل
أبخرتها يمكن أن تؤثر في عقلي لهذا الحد؟.. لم أسمع عن هذا من قبل..
.. لا تظهر أنك لاحظت!.. هذا أفضل!

استدرت من جديد لأجد نكتورة (كرامب) تقف خلفي وهي تضع
إصبعاً على شفتها..



قلت لها:

.. "أنا فقط مندهش من أن..."

قلت في فهم:

.. "نعم.. رأيتهما مرتين.. هذا مفهوم.. سوف تقابل هذه التجربة عدة مرات الليلة.."

ثم أضافت وهي ترفع خصلة الشعر الأشيب من جبينها:

.. "اعتدنا هذا لأن عيد ميلادي في الرابع والعشرين من إبريل.. ليلة صيام القديس مارك حسب كل المعتقدات الشعبية.. منتصف الليل هو الوقت الأمثل.. حدث هذا في عامين متتاليين ثم صار قاعدة.. بعدها وجدنا أن أناسًا كثيرين يحضرون عيد ميلادي لهذا الغرض بالذات.. إنها تجربة مخيفة مثيرة.. لكن الفضول البشري لا نهاية له.."

قلت وأنا أمز رأسي في عدم فهم:

.. "لا أفهم حرقًا.."

قالت:

.. "لأنك لا تعرف ما هو Doppelganger أو القرين.. وهي لفظة ألمانية معناها (الساخر المزدوج)... المعتقد الشعبي يقول إن القرين يظهر في هذه الليلة بالذات، أما لماذا في حفل عيد ميلادي فأمر لا يعرفه إلا الله.. في هذه الليلة يأتي الناس الحفل ويرقصون ويسكرون، وهم ينتظرون ما سيرونه عند منتصف الليل.. من ير نفسه في هذا الحفل، يعرف أنه رأى القرين الخاص به، ومعنى هذا أنه سيموت هذا العام!..."

.. "هذا.. هذا شنيع!"

.. "نعم.. لكنه مثير كذلك.. كل الناس تأتي لعيد ميلادي آملّة ألا تقابل نفسها.. والأروع أنك تعرف يقينًا من الذي سيموت!... أنت تعرف دعابة القائد الذي يقول لجنوده المائة أتوقع أن يموت منكم 99 جنديًا في هذه العملية.. عندها ينتظر كل جندي لرفاقه ويقول لنفسه: يحزنني فقد الزملاء!.. هذا هو ما يحدث هنا!"

.. "لكن هذا يعني أن العجوزين..."

"كلنا لاحظ هذا.. ليس الأمر قدرة سحرية على التواجد في مكانين..
الأمر يتعلق بأن القرين الخاص بكل منهما موجود في ذات الحقل.. ومن
رحمة السماء بهما أنهما ضعيفا البصر.. كل الموجودين رأوا وعرفوا
لكنهما لا يعرفان.. هناك البائسان سيموتان هذا العام.. لن يكونا هنا في
عيد ميلادي القادم!"

كانت فكرة مروعة... لا أستطيع تصديق هذا.. لكنني بالفعل رأيت
المجوزين مرتين، ومن المستحيل أن يكون من رأيت هو الشخص ذاته..
لكن..... هذا لا يدل على شيء... منذ ميلاد البشرية وهناك توأمة في كل
مكان، وهناك أربعون شخصاً يشبهك كما قال أجدادنا..
قلت لها ضاحكاً:

"لا اصدق حرفاً من هذا كله يا دكتورة.. فنت تعرفين أن العلم...."
لكنها لم تكن تصغي.. كانت تنتظر في دعول وبعشة إلى شيء خلف
ظهري.

استدريت لأرى ما هنالك فوليت ذلك الرجل الذي يليق الفراك ويمشي
بين الموائد وقد بدت عليه الحيرة وعدم الارتياح... رجلاً ذا علاج عربية
أو باكستانية.. لا.. هو خشن الشعر.. إنه عربي.. لا شك في هذا..
هو لا يشبهني..
إنه أنا!

ملحوظة ناشر الأوراق: بما أننا نعرف أن د. محفوظ قد توفي
بعد هذه الواقعة بأربعة أشهر، فإننا لا نملك تكلم بهذه القصة بقلب
مستريح.. صحيح أننا لا نملك تصديقها كذلك، لكنها كالعادة لغز آخر من
الغاز ذلك الصندوق العجيب الذي تركه لنا د. (محفوظ)... الغاز الذي لن
نعرف حلها أبداً..





مقهى بين الأشجار

أكره السفر ليلاً بشدة..

عندما يتسلل النعاس إلى عيني وأسند رأسي على المقعد الذي أمامي.. رأسي الذي صار يزن طنين.. رأسي المسكين الذي يدق كجرس من أجراس المعابد البوذية.. أغمض عيني.. عندها فقط أتذكر أنني عاجز تماماً عن النوم في أية وسيلة مواصلات. نعم يمكنني النوم بصعوبة في القطار والطائرة، لكن من المستحيل أن يجد النوم سبيله لبابي في سيارة.. كلما بنا من الباب ومد يده ليفتحه سقطت السيارة في مطب أو دوت الفرملة، وهكذا يتراجع النوم مذعوراً وينتظر على بعد مترين من الباب بانتظار فرصة أخرى.. فرصة لا تأتي أبداً..

الأضواء تلمع على الوجوه من حين لآخر.. مبهرة تؤذي العينين وتجعلك تحكما. الدمع يحتشد في عينيك مع لعنة قصر البصر الشهيرة: الشعور بأن هذا كله حلم.. خير حقيقي..

الأسوأ أن تهلس خلفك في السيارة تلك المرأة حسنة الصوت التي تحكي لجارها ممسأة قصة ما.. صوت منوم يجعلك تشعر بدوار..

تراقب الطريق على سبيل التسلية لكنك تشعر بالذعر، وتخاف أكثر لأنه ما من أحد يلاحظ ما تلاحظه، ويخاف مما تخافه...

ربما كان الأفضل أن تنام.. هنا نتذكر أن لست ممن يقدرّون على النوم في وسائل المواصلات! وهكذا...

كنت مضطراً لذلك لأن موعد آخر قطار قد فاتني منذ زمن.. وكان ذلك السائق يقف في الميدان منادياً الناس أن ينتهزوا الفرصة الأخيرة. لهذا وثبت مع الناس وأنا أبارك أن ساعتين من العذاب تنتظرانني في شغف..

تنتطلق السيارة.. الفاتحة للنبي يا اخواتنا نواصل بالسلامة.. رجل
ملتج يقول إن دعاء السفر هو الاصح..

جو عام من التوتر والترقب.. السائق يقود بسرعة جنونية فعلاً..
تتلاعب الذكريات في ذهنك.. تتفكر أشياء وتنسى أشياء.. شريط
اليوم بكامله يدور في خيالك.. المصرف وذاك الخطأ في الشيك..
المدرس الخصوصي لابنك ومشادة مع أخي زوجتك.. عداد الكهرباء
وفاتورة الهاتف..

لا تعرف كيف نمت.. إنها المعجزة.. لقد نمت..

فتحت عيني بعد نوم لا أعرف كم طال..

كنت في حال غريبة بين الإفاقة والنعاس.. وبطرف عيني رأيت
السيارة التي كنا نركبها واقفة إلى جانب الطريق..
أما المكان الذي أنا فيه فمقهى.. مفهى أقرب إلى تعريف (الغرفة)،
من تلك المقاهي التي يعج بها الطريق السريع حيث يدخل السائقون
المعسل وربما أشياء أخرى..

مقاعد من الخيزران متناثرة خارج المقهى الضيق، وهناك نصبة
يقف خلفها شاب نحيل منهمك في صنع القهوة.. وهناك ثلاثة عتيقة
بها مياه غازية.. هناك بعض نباتات ظل مزروعة في صفائح صلبة..

جوارى مائدة صغيرة عليها كوب من شاي ثقيل.. كوب منسوخ
ببصمات الأصابع وبقايا الشاي لكنني كنت في حاجة إليه. أريد أن أتيق
قليلاً..

الإضاءة خافتة اللهم إلا من كlob معلق خارج المقهى يلتف حوله
الذباب، ويصدر صوت (تش ش ش) المميز.. وهناك مصباح واهن
داخل المقهى..

حولنا أشجار كثيفة . فقط ترى السيارة بين فرجة منها.. ولو نظرت
لأعلى لرأيت سماء سوداء كالمخمل..

كان ركاب السيارة كلهم من حولي.. متناثرين على الموائد يشربون
الشاي أو القهوة أو الحلبة، وبعضهم يدخن الشيشة.. أعني البوري أو
الجوزة طبعًا..

جاء المفتي القهوجي الذي يطلق مريولة على خصوه ويعمل صينية
متسخة مبتلة، فمسح المائدة جوارى وسألني بلا اكتراث:

.. "هل من شيء آخر يا استاذ؟"

ملت عليه سائلًا:

.. "مالا يحدث هنا؟ متى جئنا؟"

كان سؤالاً غريبًا بالطبع، وقد نظر لي في حيرة واتهام صامت
بالخبال، ثم قال:

.. "مشكلة بسيطة في السيارة.. أرسلوا في طلب ميكانيكي.. لا تقلق..
يبدو أنك نمت طويلاً"

إلن أنا كنت في حالة نوم غريبة لم أعدها من قبل.. كنت نائمًا
عندما تعطلت السيارة وعندما نزلوا منها، وعندما مشوا لهذا المقهى،
وعندما جلست وطلبت شايًا..

.. "وأين نحن بالضبط؟"

كنت قد نمت ونحن قرب بنها.. لكنه قال لي:

.. "نحن في أرض الله الواسعة.. لا تقلق.. هل تنوي الدفع الآن أم
ستسحب المزيد؟"

نظرت لكوب الشاي للمعلن وقلت في غضب:

.. "أنا لم أشرب أول طلب بعد"

”كما تحب.. لكن أنكر الله في كل وقت بدلاً من جلستك الصامته هذه..“

وانصرف.. بينما ظلت أرمق من حولي.. جاء مجموعة من الناس وألقوا السلام.. واضح أنهم من الريف وأنهم تجار. جلسوا وحلبوا شايًا وشيشة فيما قال أحدهم وهو يرفع الجلياب عن ساقه:

”لم يكن الأمر صعبًا.. الرحلة سهلة ممتعة.. وهناك مقهى كذلك..“
قال آخر:

”بصراحة كنت أخشى ما سترأه..“

راح الأول يتفحص ساقه المشعرة، ولاحظت أنها مجروحة بعنف.. لكنها لم تكن تنزف.. رفعت عيني فوجدت زميله بجرح بالغ في رأسه.. غريب هذا.. إن تحمل هؤلاء التجار لعمال حقًا..

لاحظ أحدهم أنني أطيل النظر فقال بصوت غليظ:

”لا تقلق يا أستاذ.. لكن هل جرحت أنت؟“

هل يجب أن أكون جريحًا.. قلت:

”لا..“

”أفضل شيء أن تكون قطعة واحدة.. صحيح أن هذا لا يحدث فارقًا

لكن الإنسان يكره أن يرى لجمه ممزقًا أو جريحًا..“

قال آخر:

”تحمد الله أنه لا يوجد نزف..“

قلت وأنا أبحث عن الهاتف المحمول:

”ربما كان من الأجدر أن أطلب لكم الإسعاف..“

هنا تدخل الفتى القهوجي الذي جلب الشيشة ومعها صينية مصحلة

بأكواب الشاي:

.. لا تتعب نفسك يا أستاذ.. كله مكتوب.. هم الآن في أمان حقيقي.."

هنا رايت سائق السيارة التي كنا نركبها يمر أمامي.. صحت أناديه فتظر لي وابتسم ثم واصل مشيه بين الموائد. قلت في عدم فهم: .. لعله يبحث عن مكان يقضي فيه حاجته.."

قال القهوجي:

.. لا داعي لذلك.. لكنه دفع الحساب وصار حرًا.. سوف يواصل الرحلة"

.. "يرحل؟.. هل أصلح السيارة؟.. وأين الباقون؟"

.. "سيهرحل.. لكن ليس بالسيارة يا أستاذ.. أمثاله لا يحتاجون إلى عجلات.. وانت.. هل تدفع الآن؟"

.. "كم؟"

راح يجمع ويطرح كأنني التهمت عشاء كاملاً، ثم قال في النهاية إن حسابه جنيه واحد.. مدت يدي في جيبي أبحث عن الجنيه وبعض البقشيش.. لم أجد شيئاً.. هناك ورقة بمائة جنيه..

.. "ليس معي سوى ورقة بمائة.."

ضحك في خبث وهو يرفع الكوب الفارغ من أمامي:

.. "يا بك.. لو كان معي مائة جنيه لاسترحمت من هذه المهنة.. لكن يمكنك الانتظار بعض الوقت فلربما وجدت فكة.. هل أخضر لك بعض الحلبة بالحليب؟"

.. "ليكن.."

وبحثت بعيني في المقهى الذي جلس زبائنه في الضوء الخافت.. ربما كان مع أحدهم فكة.. هذا الرجل كان يجلس جوارى في السيارة وكان نائمًا منذ البداية. نهضت نحوه وسألت عن....



كان نائمًا.. لكنني رأيت عتقه.. كان مثنيًا بطريقة لا يمكن وصفها ولا
يمكن أن تراها على إنسان حي.. لكنه كان حيًا.. شفقاء تتحركان..

بدأت أترجع للخلف فاصطدمت بالقهوجي الذي كان يقف يراقب
المشهد في استمتاع.. قال لي:

.. أنت قلق وحائريا أستاذ.. لا أفري لماذا لا تقبل الأمر مثل الآخرين؟..
سوف تجلس هنا بعض الوقت وتبادل الكلام مع الآخرين ثم تدفع
الحساب وترحل.. هكذا يفعل الجميع.. كله مكتوب.. صدقني

نظرت حولي وسألت من جديد:

.. أين السائق؟

.. قلت لك إنه رحل.. لقد كان أول من رحل..

.. لم يأخذ السيارة..

.. لم يعد هناك داع للسيارة!

هذه المرة تملكني الهلع فطأعت بالصينية التي يحملها وهرعت
أجري خارجًا من ذلك المقهى الفامض.. أسمع صوته يصيح (الحساب
يا أستاذ.. الحساب!).. أجتاز حزام الأشجار المحيط بي لأرى الحقول
المظلمة وفوقها حزام النجوم البكر.. صوت صرصار الحقل ونقيق
الضفادع.. السيارة تقف كالشبح في الظلام..

ما معنى هذا؟... هناك معنى لكنني أخشى أن أقوله..

تعثرت وسقطت.. وفقدت الوعي..

هذا أنا.. أفتح عيني.. هناك من يركع جواربي.. هذا القرص
الملون يبعث أضواء مجنونة في كل مكان.. ما هذا الزحام؟.. ما
هذا الصوت المولول بلا توقف؟.. سرينة؟.. هناك من يمسح شيئًا دافئًا

عن وجهي..



صوت ثقالة تقرب.. رجلا ن يحملاني ليضعاني فوقها..
انظر حوالي.. هذه جثث.. جثث دامية متناثرة على جانب الطريق،
وهناك بقع دم.. هذا هو السائق.. لن يقود سيارة بعد اليوم..
إنهم يضعونني في سيارة الإسعاف.. رجل بشارب كث ينحني علي
ويقول:

.. "حمدا لله على السلامة.. كله مكتوب.. لقد نجوت بمعجزة.. السيارة
دارت حول نفسها ثلاث مرات ثم اصطدمت بشجرة.."
.. "والمقهى؟.. المقهى الذي تحيط به الأشجار؟"

نظر لي في عدم فهم ثم قال:
.. "حاول أن تستريح.. أي مقهى؟.. لقد وقع الحادث بين طوخ وبينها..
لا توجد مقاه قريبة.."

نظرت لسقف عربة الإسعاف الذي تركض عليه الاضواء.. لحظات
من الشرود ثم سمعت الرجل ينظر من النافذة الخلفية ويقول:
.. "ليلة سوداء هي.. هذه عربة نصف نقل تنقل بعض ثجار الخضر..
ماتوا جميعا.. زملائي أخبروني على الهاتف.."
كنت أفكر في هذا كله..

المقهى لا وجود له.. هلاوس زارتني وأنا ملقى على الاسفلت بين
الموت والحياة.. لكنني أعرف ما هو أفضل.. أعرف يقيناً أنني كنت هناك
فعلاً، وأن الآخرين ذهبوا هناك أيضاً.. كله مكتوب.. كلهم شربوا
جرعات أخيرة من الشاي.. ثم دفعوا حسابهم ورحلوا..

لماذا أنا حي؟.. ربما لأنني لم ادفع حسابي.. لأن الورقة ذات المائة
جنيه عطلت ذلك.. "لكنه دفع الحساب وصار حراً.. سوف يواصل
الرحلة" .. "أمثاله لا يحتاجون إلى عجالات.."

وما زالت حتى اليوم أرتجف هلقا كلما دنت السيارة من بنهاء
وبعيني افتش عن ذلك المقهى بين الأشجار.. أعرف أنه موجود.. أعرف
أنني سأزوره يوما ما وسوف أشرب الشاي..
لكنني في تلك المرة سوف أجد معي ما يكفي لدفع الحساب.. أعرف
هذا يقينًا.



نظرية الفتاة الأخيرة

أنا الفتاة الأخيرة لهذا سانجو..

أنا فتاة.. هذه نقطة..

أنا بريئة طاهرة.. هذه نقطة أخرى.. لم يمسنني بشر حتى هذه اللحظة، ولم تلمس شفتاي لغافة تبغ ولم أتعاط أي شيء من تلك الأشياء اللعينة.. (نجلاء) كانت تدخن.. أعرف هذا يقيناً.. (مها) كانت لا تمنع في شرب البيرة وتزعم أن البيرة ليست حراماً.. قلت لها إنها تهذي.. البيرة حرام وتحتوي على كحول، فإن أرايت أن تشربها بعد هذا الإنذار فهي مشكلتها..

(عبير) تعرف الكثير من الفتية.. هي لا تريد سوى أن تترك حلاًماً لا يتحقق في نفس كل شاب.. تترك جوعاً لا يشبع.. تترك ظمأ لا يرتوي.. هي تتسلى ولهذا هي تستحق ما يحدث.. لا تنس كذلك أن اسمي (عصمت).. اسم غير شائع لكنه يقع بالضبط بين الجنسيتين.. هذا عامل قوي آخر..

أخرج إلى الحديقة المظلمة.. أمشي فوق العشب الرطب.. هناك صمت شديد ولا توجد موسيقى تصويرية متوجسة.. لكن هذا لا يبعث الطمأنينة في النفس كما تعرف لأنه من الممكن في أية لحظة أن.. تدوي الصرخة!.. صرختي أنا طبعاً في هذه الحالة، والسبب أن قدمي تعثرت بجثة طرية مبتلة.. نعم مبتلة.. إنه كل هذا الدم.. الرأس مهشم بشيء ثقيل أما الملامح فملامح فتاة.. إنها (عبير) بالذات.. كنت أعرف هذا.. صمت الموسيقى يدل على وجود مفاجأة قذرة..

إنه في البيت.. في مكان ما هنا..

أهرع نحو باب الحديقة لكنني أرى ذلك الظل هناك.. يدخن.. يرغب أن هذا يجعل بقعة الضوء مرئية بوضوح ويجعلني أعرف أنه ينتظرني هناك.. لكن لا بد من التدخين ليضفي عليه ثبات أعصاب..

لا يمكن الخروج من هنا.. سوف أراجع..

أجري إلى الباب الخلفي الذي يقود للمطبخ. هذا البيت غربي الطابع
لذا هناك باب للمطبخ. أفتح الباب لكنني أتعث في شيء طري آخر.. هذا
(عادل)!... (عادل) مقتول على باب المطبخ.. هناك من قطع حلقومه. أرى
هذا في الضوء الخافت..

(عادل) أيضاً لم يكن نقيًا جدًا.. اعتقد أنه بشكل ما استحق ما
حدث له.

أنا الآن في المطبخ المظلم. لا يمكن أن أضيء النور.. سوف أبحث في
هذه الخزانة عن سكين.. فقط السكين العملاقة اللامعة سوف تمنحني
بعض الطمأنينة. أفتح الخزانة ولكن.. هناك شيء ضخم يتدفع نحوي..
يثب في وجهي.. صرخت ووثبت للخلف..

وعندما تظرت إلى الأرض أدركت أنه قط.. قط ضخم يتمسح في ساقي
ويبدو أن المسكين مذعر أكثر مني.. لكنني أعرف قواعد هذه الأفلام:
الخشبة الأولى تأتي من القط، لكن ظهور القط ينذر بالهجمة الحقيقية
دائمًا.. فقط تأتي هذه الهجمة عندما يسترخي البطل ويهدأ..

فرصتي في النجاة عالية جدًا على كل حال.. أنا أول اسم في تترات
الفيلم، وأنا الفتاة الأخيرة واسمي (عصمت).. سوف أنجو..

رحلت أردد بيني وبين نفسي (كانت فكرة سوداء.. كانت فكرة
سوداء).. عندما اقترحت (هدى) أن تدعو صديقاتها وأصدقاءها في
الكلية إلى عيد ميلادها هنا، في بيت أسرتها المنعزل في المقطم. بدت لي
فكرة سخيفة غريبة الطابع. ولكن الأمسية كانت ممتعة مع (مها) و(عبير)
و(نجلاء) و(مي) وبعض الأولاد المهرجين مثل (شريف) و(عادل). أهل
(هدى) لم يكونوا موجودين.. بدت لي الشبكة غريبة جدًا وتأكدت من
صواب رأيي عندما فزئت (هدى) إلى البديروم لتحضر بعض زجاجات
المياه الغازية لتضعها في الثلاجة بدلًا من تلك التي شربناها. هنا دوت
صرختها المرعبة.. هرعنا لنرى ما هنالك فوجدناها معلقة من خطاف في
البديروم.. خطاف يفترق عنقها. كان الكلب ينبح بقوة في الحديقة فخرج

(ماهر) ليري ما به.. سمعنا صرخته.. هنا فقط أدركت أننا في فيلم مثل (الصرخة) أو (هالوين) أو (أعرف ما فعلت الصيف الماضي) أو (منزحة منشأ الشريط في تكساس). وأدركت أن هناك سفاخاً بيننا.. من قواعد أفلام الرعب أن من يذهب ليعرف سبب نباح الكلب لا يعود أبداً..

تأكد ظني عندما حاولنا طلب الشرطة.. شبكة المحصول معطلة والهاتف العادي مقطوع.. فلنفر من البيت يا شباب.. لنركض حتى أقرب بيت للجيران..

لكن الباب موصد (ألم يكن مفتوحاً منذ دقائق؟).. الفواقد موصدة.. هكذا تصرفنا بالحماسة المعهودة في الأفلام وتفرقنا وكل واحد منا يبحث عن طريقة للفرار.. لا أعرف ما فعله الآخرون لكنني أعرف أن (عادل) و(عبير) هلكا.. لقد وجدت سلماً صغيراً في القبو استطعت عن طريقه الخروج إلى الحديقة. لكن من الواضح أنني لم أفر بعد.. لقد عدت للبيت.. يجب أن أخرج من المطبخ قبل أن تأتي الخضة الثانية.. خضة ما بعد ظهور القط...

خرجت من المطبخ فوجدت جثة على الأرض.. لقد صار هذا مملاً.. من هو؟... يمكن بشيء من الخيال أن افترض أنه (شريف). لكن لن أمر فوق جثته.. لا تمر أبداً فوق جثة في الأفلام لأنها تصحو فجأة وتمسك بكاهلك. لو حدث هذا لكان (شريف) هو القاتل وهو الآن يتظاهر بأنه ميت.. هكذا وثبت من فوقه.. ونظرت للخلف ف أدركت أنه لا يعمل.. لا أحد يعمل وعنفه بهذا الشكل..

درجات السلم تقود لأعلى.. إلى غرف النوم.. لكن أولاً لابد من عمل شيء يقطع الطريق على القاتل، وإلا فإن اقتفاء أثري إلى الطابق الثاني عمل شديد السهولة. هربت إلى الحمام الموجود في أعلى الدرج.. فتحت وبحثت كالمجنونة عن زجاجة الصابون السائل.. خرجت من قطعة الأنفاس إلى أعلى الدرج وأفرغت الزجاجة على الدرجات الرخامية، ثم عنت وملأت دلوًا من الماء سكبت، في الإضاءة الخافتة سوف يصعد السفاخ

السلم دون روية ولسوف يفاجأ بأن قدميه تطيران في الهواء. لا اعتقد أنه سيموت لأن الحياة ليست بهذه السهولة، لكنه قد يصاب إصابة بالغة...
هرعت إلى غرفة النوم.. فتحت الباب.. هنا سقطت جثة كانت مستندة إليه.. هاتان العيتان.. إنها (نجلاء).. أطلقت صرخة مكتومة ووثبت فوقها إلى داخل الحجرة.. ماذا أتى بنجلاء إلى غرفة نوم (عبيد)؟.. لا شك أنها كانت تحسبها مخبئاً آمناً.. يبدو أنني أكرر ذات الخطأ..

الهاتف المحمول هنا على اللراش.. فلأجرب مرة أخرى. مصادفة سخيفة لأن تعطل كل هواتفنا المحمولة لكن المشاهد قد يقبل ثغرات كهذه.. إن الهاتف المحمول قد جاء ليفسد نصف سيناريوهات الرعب على الأقل.. سوف يكون مصير نصف أفلام الرعب القديمة هو سلة المهملات، لأن مفتاح الرعب رقم واحد هو العزلة..

الهاتف معطل فعلاً... هذا يشير إلى أن القاتل له صفة خوارقية ما.. ربما هو الشيطان أو شبح سفاح عاد من القبر، فقط أمثال هذين يفكرون على تعطيل شبكات المحمول كلها..

هنا ورقة وقلم.. سأغلق الباب وأجلس وأدون هذه الأحداث لأرتب الفكري بسرعة...

أنا الفتاة الأخيرة.. الآن صرت واحدة من ذلك.. الفتاة التي تبقى حية بعد هلاك الجميع والتي تواجه للقاتل.. هناك ناقدة سينما أمريكية ابتكرت هذا المصطلح بعد ما شاهدت حشداً من أفلام الرعب، وكتبت كتاباً اسمه (رجال ونساء ومناشير). لاحظت الناقدة أن من يتجو في آخر أفلام الرعب بعد هلاك الجميع هو فتاة.. فتاة طاهرة لم تلوث.. واسمها يصلح أن يكون لذكر أو أنثى (مثل عفت وعصمت عندنا) . في البدء يشاهد الناس الفيلم بعيني القاتل، وفي مطلع سادس لأن يظهر القاتل بالفتاة، لكنهم في نهاية الفيلم يتوحدون مع الفتاة ويتمنون أن تنجو.. هذا غريب لكنه حقيقي.. أي أن المشاهد يغير جنسه أثناء مشاهدة الفيلم. بطله الفيلم كذلك عندما تواجه السفاح فإنها تغير

جنسها لأنها تتزود بسلاح وهو رمز ذكري.. سوف تقتل القاتل بسكين
أو فأس أو مطرقة...

أنا سأنجو لأنني بلا خطايا ولأن اسمي (عصمت) ولأنني أنثى..
ماسورة الصرف المجاورة للنافذة والقادمة من الحمام. سوف يصعد
لي القاتل وعندها سوف أثب وأنزلق على هذه الماسورة إلى الحديقة وأثب
فوق السور.. سوف أركض في الشارع وسوف أجد سيارة أجرة أو
سيارة تورية شرطة حتمًا..

عندما يأتي رجال الشرطة سيشرحون لنا لماذا فعل القاتل ذلك...؟..
من هو؟؟

أسمع صوت الارتطام القوي على السلم.. لقد حاول الغبي الصعود،
هنا وجد أن الأرض تنزلق تحت قدميه. طار في الهواء فإن كنت سعيدة
الحظ لحطم رأسه. لكنني أعرف هذا النوع من القتل. لن يموت بسهولة
أبدًا.. سوف أجهده أمامي خلال دقائق برأس دامية وجنون أكبر..

نعم.. الآن وقت الغزول على الماسورة. لو دخل الغرفة فلن يمنحني
الوقت الكافي للفرار. هيا بنا...."

فرغ النقيب (عمر) من قراءة الرسالة فوضعتها جانبًا وجرع جرعة من
كوب الشاي، ثم أشعل لفافة تبغ ونظر لي قائلاً:
"ما رأيك يا د. (محفوظ)؟.. دكتورة (عصمت) كما قيل لنا كانت
تلميذتك"

قلت له وأنا أسترجع فقرات الخطاب:

"يقول أوسكار وايلد إن الطبيعة تقلد الفنان.. يبدو أن أقلام الرعب
جعلت السفاحين يتصرفون على طريقتها لا على طريقتهم. رأيت أمس
عاشقين يقفان في ملل على الشاطئ يرقبان الغروب.. واضح تمامًا أن
كليهما لا يرغب في ذلك، لكنهما مجبران لأن السينما علمتهما أنه لا حب
دون مشاهدة الغروب.."

قال وهو يضع الخطاب في ملف:

“على كل حال خابت نظرية الفتاة الأخيرة.. لقد انفصلت ماسورة
الصرف وهوت هي من حائق لتهشم رأسها.. ليرحمها الله.. ما رأيك في
د. (عصمت)؟”

“هي عبقرية.. عبقرية حقيقية، ويبدو أن النقد الفني صار طبيعة ثانية
لديها.. أحياناً يعبر العبقرى الخط الفاصل فيصير شيئاً آخر.”

قال وهو يدفن لقافة التبع في المظلة:

“نعم.. نعم.. كل هذا العالم والحفل والأصدقاء والسفاح لا وجود
لهم.. لقد عاشت هذا كله وخلقتة وهي وحدها في غرفتها في المصحة
النفسية. لم يخطر ببال هؤلاء الأغبياء أن يضعوا قضباناً لقافة الغرفة..
ولكن هل تؤمن حقاً بنظرية الفتاة الأخيرة هذه؟”

لذت بالصمت.. ترى حتى ينتهي الكابوس ويبدأ الواقع؟.. ليست
قصتها الحقيقية هذه نواة ممتازة لفيلم مخيف؟.. فيلم أكثر واقعية وإرعباً
من أفلام (الصرخة) و(كابوس في شارع الم) و(هالوين)؟.. ربما نحن
أبطال في فيلم مربع طويل جداً ولا نعرف ذلك... المشكلة أننا لا نعرف
ذلك وبالطبع لا نتقاضى عن تشييلنا أجراً...



الفهرس

5	المقدمة
7	المقبرة رقم 34
17	سوء تقاهم
25	أعرف جيداً
33	ليست على ما يرام
43	اسمي ليس (محمود)
53	أنا والكلب
61	كنت هناك
71	يوم الأحد الكثيب
81	لأنها رقيقة
91	زائر الليل
101	بيضة ودجاجة
109	الباكية
117	همس الموتى
127	سن روبينسون
137	مسكينة
147	عاشق اللوحات
157	ستريس
165	القط الذي انحرف
175	أحلام أحلام
183	الحقل
191	مقهى بين الأشجار
201	نظريّة الفتاة الأخيرة

الآن

نفتح الصندوق

2



د. أحمد خالد توفيق

MOHACT

ما زلنا مع الصندوق العجيب الذي تركه لنا .. محفوظ ..
تذكرون أن الرجل مات فقيرًا فلم يترك لنا إلا هذا الصندوق
في قبو داره .. الصندوق لم يفرغ بعد فما زالت فيه حكايات
وملاحظات عن تلك القصص الغريبة التي مرت به في
حياته .. من جديد اقربوا .. تعالوا نفتح الصندوق الآن ..
تعالوا تشعل شمعة تبده ظلام القبو ونطالع قصة جديدة
من تلك القصص ..

rewayat2.com

الكويت
2009

